توفيق الحكيم

السلطان الحائر

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٤٢٧٧٧
المطبعة النموذجية
١ سكة الشابورى بالحلمية الجديدة

توفيق الحكيم

السلطان الحائر

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٤٢٦٢٧٧
المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابوري بالحلمية الجديدة

مؤلفات لتوفيق الحكيم

١ — محمد
٢ — شهرزاد
٣ — أهل الكهف
٤ — عودة الروح (جزآن)
٥ — تحت شمس الفكر
٦ — أشعب
٧ — عهد الشيطان
٨ — براكسا: أو مشكلة الحكم
٩ — راقصة المعبد
١٠ — نشيد الإنشاد
١١ — حمار الحكيم
١٢ — سلطان الظلام
١٣ — من البرج العاجي
١٤ — تحت المصباح الأخضر
١٥ — أهل الفن
١٦ — بجماليون
١٧ — الأيدى الناعمة
١٨ — لعبة الموت
١٩ — حمارى قال لى
٢٠ — أشواك السلام
٢١ — رحلة إلى الغد
٢٢ — يوميات نائب فى الأرياف
٢٣ — عصفور من الشرق
٢٤ — سليمان الحكيم
٢٥ — زهرة العمر
٢٦ — رصاصة فى القلب
٢٧ — الرباط المقدس
٢٨ — شجرة الحكم
٢٩ — الملك أوديب
٣٠ — مسرح المجتمع
٣١ — فن الأدب
٣٢ — ذكريات الفن والقضاء
٣٣ — أرنى الله
٣٤ — عصا الحكيم
٣٥ — التعادلية
٣٦ — إيزيس
٣٧ — الصفقة
٣٨ — المسرح المنوع
٣٩ — تأملات فى السياسة
٤٠ — أدب الحياة

هذه المسرحية كتبت فى خريف ١٩٥٩ م ، عندما كان المؤلف فى باريس ، يقضى فتره يشهد فيها ما يجرى فى عالم اليوم . ووحيها ذلك السؤال الذى يقف عالمنا اليوم أمامه حائرا : هل حل مشكلات العالم هو فى الاحتكام إلى السيف أو إلى القانون ؟ ... فى الالتجاء إلى القوة أو إلى المبدأ ؟ ... إنّ أصحاب السلطان — ممن يملكون تقرير مصير البشر — يقفون الآن وفى يمناهم القنبلة الذرية أو الهيدروجينية ، وفى يسراهم القانون أو المبادىء ، فى جانب القواعد الصاروخية ، وفى الجانب الآخر هيئة الأمم ، وهم حائرون خائفون لا يدرون ، أو هم لا يجرءون على اتخاذ القرار الحاسم : أيهما يطرحون وأيهما يستبقون ؟ ... أيهما يحتاج إلى شجاعة أكبر وأيهما يعرض إلى خطورة أفدح ؟ ... هذا الموقف الحائر الخائف من مسئولية الاختيار النهائى بين السيف والقانون ، قد جر العالم كله معه إلى هذه الحيرة الشاملة والاضطراب العام .

وضع المؤلف هذا الموقف وهذا السؤال فى إطار شرقى قديم .

وقد نشرت هذه المسرحية بالفرنسية فى باريس ، بعنوان : « اخترت » .

الفصل الأول

« ساحة بالمدينة ، فى عصر سلاطين
المماليك . . . الفجر يكاد يبزغ ، وقد خيم
السكون ، وأقيم عمود شد إليه محكوم عليه
بالإعدام ، وجلاده على مقربة منه ، يجاهد فى
مقاومة النعاس . . . . »

* * *

المحكوم عليه « متأملا جلاده » : تنعس ؟ ! ... طبعا تنعس ...
ناعما ! ... هانئا ! ... لأنك لا تنتظر ما يكدر
صفوك ! ...

الجلاد : صه ! . . .

المحكوم عليه : وأخيرا ؟ ... متى ؟ ...

الجلاد : قلت لك صه ! . . .

المحكوم عليه « متوسلا » : قل لى بحقك متى ؟ ... متى ؟ ...

الجلاد : متى تكف أنت عن إزعاجى ؟ ! ...

المحكوم عليه : آسف ! ... ولكنه أمر يهمني بوجه خاص ! ...
متى يتم هذا الحادث ... السار بالنسبة إليك ! ...

الجلاد : عند الفجر ... قلت لك هذا أكثر من عشر
مرات ... عند الفجر ! ... أنفذ فيك الحكم ! ...
فهمت الآن ؟ ... دعني إذن أنعم بالسلام لحظة ! ...

المحكوم عليه : الفجر ؟ ! ... إنه لم يزل بعيدا ! ... أليس كذلك
أيها الجلاد ؟ ! ...

الجلاد : لست أعرف ...

المحكوم عليه : لا تعرف ؟ ! ...

الجلاد : المؤذن هو الذى يعرف ... متى صعد إلى مئذنة
هذا المسجد ، وأذن لصلاة الفجر ، نهضت أنا
إليك بسيفى وأطحت برأسك ... تلك هى
الأوامر ! ... استرحت الآن ؟ ! ...

المحكوم عليه : بدون محاكمة ؟ ! ... إنى لم أقدم بعد إلى المحاكمة ،
ولم أمثل بعدُ بين يدى القاضى ! ! ...

الجلاد : ليس هذا من شأنى …

المحكوم عليه : حقا ! … ليس من شأنك سوى إعدامى …

الجلاد : عند الفجر … تنفيذا لأمر السلطان ! …

المحكوم عليه : لأية جريمة ؟ ! …

الجلاد : لا شأن لى ! …

المحكوم عليه : لأنى قلت …

الجلاد : صه ! … صه ! … أغلق فمك لقد أمرت بقطع رقبتك فى الحال لو نبست بحرف عن جريمتك ! …

المحكوم عليه : لا تنزعج ! … أغلقت فمى ! …

الجلاد : هذا خير ماتفعل ! … أن تغلق فمك وأن تتركنى أهنأ بنومى ! … إنه من مصلحتك أن أستمتع بنوم هادئ هنىء ! …

المحكوم عليه : من مصلحتى ؟ ! …

الجلاد : بالتأكيد … من مصلحتك أن أكون فى راحة تامة

وصحة جيدة ، جسما ونفسا ، لأنى حين أكون
متعبا ضيق الصدر متوتر الأعصاب . فإن يدى
تصاب بالرعشة ، وعندما تصاب بالرعشة فإنى
أؤدى عملى أداء سيئا ...

المحكوم عليه : وما شأنى بعملك ؟ ! ...

الجـــلاد : يا أحمق ! ... عملى متصل برقبتك ! ... إن سوء
الأداء معناه أن رقبتك لن تقطع قطعاً حسنا ... لأن
القطع الحسن يحتاج إلى يد ثابتة ونفس هادئة ،
حتى يطاح الرأس بضربة واحدة ، لا تدع لك
وقتا للإحساس بالألم ... فهمت الآن ؟ ! ...

المحكوم عليه : حقا ... هذا صحيح ! ...

الجـــلاد : أرأيت ؟ ... واقتنعت ؟ ... إنه من اللازم لك
أن تهيئ لى الراحة ، وأن تدخل على قلبى البهجة ،
وأن ترفع من روحى المعنوية ! ...

المحكوم عليه : روحك المعنوية ؟ ! ... أنت ؟ ! ...

الجـــلاد : بالطبع ، ولو كنت أنا فى مكانك ...

المحكوم عليه : اللهم اسمع منه ! .. ليتك كنت فى مكانى ! ...

الجـــلاد : ماذا تقول ؟! ...

المحكوم عليه : استمر ! ... ماذا كنت تفعل ، لو نلت الشرف والغبطة بأن تكون فى مكانى ؟ ! ...

الجـــلاد : أقول لك ماذا كنت أفعل ... هل معك نقود ؟ ...

المحكوم عليه : آه ... النقود! ... نعم ، نعم ، نعم ! ... النقود ! ... فكرة صائبة ! ... أما النقود ياصاحبي فحدث عنها ولا حرج ! ... المدينة كلها تعرف ـ وأنت منهم ـ أنى من أغنياء التجار وأثرياء النخاسين ! ...

الجـــلاد : لا ... إنك أسأت الفهم ... ليست الرشوة ! ... من المستحيل أن ترشونى ! ... لا بفضل أمانتى ونزاهتى ... بل لأنى ـ بكل صراحة ـ لن أستطيع إنقاذك ... كل ما أردت هو تلبية دعوتك إلى الشراب إذا دعوتنى ... إن قدحا من النبيذ ليس

رشوة ! ... وإنه لمن سوء الأدب أن أرفض
دعوتك ... انظر ! ... ها هنا خمار على مرمى
البصر منك ... حانه مفتوح طول الليل ؛ لأن له
زبائن ممن يزورون تلك ... العاهرة التي تقطن
المنزل المقابل ...

المحكوم عليه : الشراب ؟ ... فقط ؟ ! ...

الجلاد : فقط .

المحكوم عليه : عندى فكرة أظرف وألطف ! ... فلنصعد معا
ـ أنا وأنت ـ إلى تلك ... الجميلة ! ... إنى أعرفها
فإذا صرنا إليها قضينا عندها ليلة رائعة لن تحسب
من العمر ... ليلة تملأ قلبك بالبهجة والمرح ،
وترفع روحك المعنوية ! ... ما قولك ؟ ...

الجلاد : لا يا سيدى الكريم ! ...

المحكوم عليه : تقبل دعوتى إلى الشراب ، وترفض دعوتى إلى
مجلس شراب وأنس ، وحسن وطرب ؟ ! ...

الجـــلاد : فى ذلك المنزل ؟ ! ... لا ياعزيزى المحكوم عليه ! ... إنى أفضل أن تبقى كما أنت ، مقيدا بأغلالك حتى الفجر ! ...

المحكوم عليه : يا للأسف ! أنت لا تثق بى ... ! ... ولو وعدتك بأنى قبيل أذان الفجر أعود إلى مكانى من الأغلال كما كنت ؟ ...

الجـــلاد : عصفور يعود إلى الشبكة كما كان !؟ ...

المحكوم عليه : نعم ، وإنى لأقسم لك بشرفى ! ...

الجـــلاد : شرفك ؟! ... ياله من قسم ! ...

المحكوم عليه : أنت لا تصدقنى ...

الجـــلاد : أصدقك ... ما دمت فى مكانك هذا ، والقيد فى يديك ! ...

المحكوم عليه : وكيف أستطيع إذن أن أدعوك إلى الشراب ؟! ...

الجـــلاد : الأمر بسيط ... أذهب أنا إلى الحان ، وأطلب إلى الخمار أن يجئ بقدحين من أجود خمره ، فإذا جاء

بهما شربنا ونحن فى مكاننا هـذا ! …
ما قولك ؟ ! …

المحكوم عليه : لكن …

الجـلاد : اتفقنا ! … أذهب أنا ولا حاجة بك أنت إلى تكلف العناء والمشقة ! … لحظة واحدة … بعد إذنك ! …

« يتجه الجلاد إلى حانة فى طرف الساحة ، ويطرق بابها ، فيخرج إليه الخمار فيهمس فى أذنه كلاما ، ثم يعود إلى مكانه » .

الجلاد « للمحكوم عليه » : تم المراد وقضينا المطلوب … وسترى يا عزيزى المحكوم عليه النتيجة السارة عما قريب ! …

المحكوم عليه : أى نتيجة سارة ؟ ! …

الجـلاد : عملى المتقن … فأنا إذا شربت أتقنت العمل ، وإذا لم أشرب قل على عملى السلام ! … أذكر لك على سبيل المثال ما حدث ذات

يوم : كلفت إعـدام شخص ، ولم أكن قد شربت يومئذ شيئـا ... فهل تدرى ماذا صنعت ؟ ... ضربت عنق ذلك المسكين ضربة عنيفـة هوجاء ، أطاحت برأسه وأطارته فى الهواء ، فسقط بعيدا ، لا فى سلتى أنا هـذه ، بل فى سلة أخرى هنالك ... سلة الإسكاف المجاور للحان ... ويعلم الله كم بذلنـا من الجهد والعناء ؛ لنخرج ذلك الرأس الضائع من بين أكداس الأحذية ، وأكوام النعال ! ...

المحكوم عليه : سلة الإسكاف ! ... بئس القرار ! ... أستحلفك بالله أن تبعد رأسى عن هذا المصير ! ...

الجـــلاد : لاتخف ! ... الأمر بالنسبة إليك مختلف ! ... الرأس الآخر كان لرجل بخيل منتن فى البخل ! ...

« يظهر الخمار خارجا من حانه ، يحمل قدحين .... »

الخمـار « متجها إلى المحكوم عليه » : هذا بالطبع لك أنت ...

رغبتك الأخيرة ! …

المحكوم عليه : بل للجلاد ! … رغبته العزيزة ! …

الجلاد «للخمار» : لأدخل على قلبه السكينة والارتياح ! …

الخمار : وممن أتقاضى حقي ؟ …

المحكوم عليه : مني أنا طبعا … لأدخل على قلبه الغبطة والبهجة ! …

الجلاد : إنه لمن الواجب على أن أقبل دعوته الحارة ! …

المحكوم عليه : وإنه لمن الواجب على أن أرفع روحه المعنوية ! …

الخمار : يا لكما من صديقين حميمين ! …

الجلاد : إن المحبة بيننا متبادلة ! …

المحكوم عليه : إلى أن يطلع الفجر ! …

الجلاد : دعك الآن من الفجر … إنه لم يزل بعيدا ! … هلم بنا نقرع الكؤوس ! …

« الجلاد يتناول القدحين » ويقرع أحدهما

با لآخر ، ثم يرفع قدحا . . . فى نخب
المحكوم عليه : . . . .

فى صحتك ! ...

المحكوم عليه : لك الشكر ! ...

الجـــلاد « بعد أن يجرع قدحه يدنى القدح الآخر من فم المحكوم عليه » :

والآن دورك أيها العزيز ! ...

المحكوم عليه « يجرع جرعة ثم يسعل » : كفى ! ... اشرب أنت

الباقى عنى ! ...

الجـــلاد : أهذه رغبتك ؟ ...

المحكوم عليه : الأخيرة ! ...

الجـــلاد «يرفع القدح الثانى» أرفع كأسى إذن فى نخب ...

المحكوم عليه : عملك المتقن ! ...

الجـــلاد : إن شاء الله ! ... وكذلك فى نخب كرمك

ولطفك أيها الصديق المحكوم عليه ! ...

الخمـار : « وهو يتلقى القدحين الفارغين من الجلاد» :ماذا صنع هـذا

النخاس الكهل ؟ ... ما جريرته ؟ ... كلنا نعرفه

في المدينة ... ما هو بسفاح وما هو بسارق ! ...

المحكوم عليه : وبرغم ذلك فإن رأسي سيطاح به عند الفجر، كما يطاح برأس السفاح ورأس السارق ! ...

الخمار : لماذا ؟ ... لأية جريمة ؟ ...

المحكوم عليه : لا لشيء إلا لأني قلت ...

الجلاد : صه ! ... لا تنبس بحرف ! ... أغلق فمك ! ...

المحكوم عليه : أغلقت فمي ! ...

الجلاد : وأنت أيها الخمار قد أخذت قدحيك فامضِ لشأنك ! ...

الخمار : ونقودي ؟ ...

الجلاد : هو الذي دعاني ... واللئيم من يرفض الدعوة ! ...

المحكوم عليه : حقا ... دعوته وتفضل هو بالقبول ... نقودك يا صاحب الحان هنا في كيس بمنطقتي ... تقدم وخذ ما تريد ! ...

الجلاد : اسمح لي أن أتقدم أنا عنه ... «يتقدم ويأخذ من كيس

المحكوم عليه نقودا ويدفع للخمار ، خذ حقك ! . . .
وقد زدناه . . . لتعلم أننا كرماء ! ...

« الخمار يتناول حقه ، ويعود إلى حانه ،
ويأخذ الجلاد فى الترنم بالغناء الخافت . . . »

المحكوم عليه « قلقا » : والآن ...

الجلاد : الآن نشرع فى الغناء والطرب !... هل تدرى يا عزيزى المحكوم عليه أنى من المغرمين بالغناء الحسن ، المفتونين برائع النغم ، الكلفين بجيد النظم والإنشاد ؟ ... إن هذا يملأ القلب هناءة وحبورا ، وفرحة بالحياة وسرورا ! ... غن لى شيئا ! ...

المحكوم عليه : أغنى ؟! ...

الجلاد : نعم ! ... ولم لا ؟ ... ما الذى يمنعك ؟ ... حنجرتك — ولله الحمد — حرة طليقة ... فما عليك إلا أن ترفع عقيرتك بالغناء، فيخرج النغم الحلو يشنف الآذان ... هيا ... غن ! ... أطربنى ! . . .

المحكوم عليه : ماشاء الله ! ... اللهم فاشهد ! ...

الجلاد : هلم ! ... غن ... أسمعنى ...

المحكوم عليه : أو ترى حقا أن لى الآن المزاج الذى يصلح للغناء ؟ ! ...

الجلاد : أولم تعدنى منذ قليل بإدخال البهجة على نفسى وكشف الانقباض عن صدرى ؟ ...

المحكوم عليه : أنت الذى يشعر بالانقباض ؟ ! ! ...

الجلاد : نعم ، وأرجوك أن تزيل انقباضى ! ... اغمرنى فى المرح غمرا ! ... أمتعنى بنفحات من الأناشيد والأغانى ... أغرقنى فى الطرب بحلو الأنغام ورائع الألحان ! ... اسمع ! ... تذكرت شيئا ... إنى أحفظ أغنية نظمتها بنفسى فى ليلة من ليالى السهاد والشجن ! ...

المحكوم عليه : غنها أنت إذن ! ...

الجلاد : ليس لى الصوت الجميل ! ...

المحكوم عليه : ومن قال لك :إن صوتى ـ أنا الآخر ـ جميل ؟ ! ...

الجلاد : كل أصوات الآخرين عندى جميلة ... لأنى لا أصغى إليها ... ولاسيما إذا كنت ثملا ! ... كل ما يهمنى هو أن يحيط بى الغناء من كل جانب ... الشعور بالجو المشبع بالطرب من حولى يريح أعصابى ... وأحيانا يحلو لى أن أغنى ... أنا نفسى ... ولكن لابد لذلك من شرط : هو أن أجد من يسمعنى ! ... وإذا وجد السامع فحذار حذار ألا يبدى الإعجاب والاستحسان ... وإلا ... وإلا فإنى أستحى وأخجل ويرتج على ، ثم أغضب غضبا شديدا ... الآن وقد نبهتك إلى الشرط ، فهل أغنى ؟ ...

المحكوم عليه : غنّ ! ...

الجلاد : وهل ستعجب بى وتستحسن ؟ ...

المحكوم عليه : نعم !

الجلاد : وعد أكيد ؟ ...

المحكوم عليه : أكيد .

الجلاد : إذن...أغنى لك تلك الأغنية الرقيقة...أتصغى؟...

المحكوم عليه : أصغى وأستحسن .

الجلاد : الاستحسان يأتى فى النهاية ... أما الآن فالمطلوب
منك هو الإصغاء فقط ...

المحكوم عليه : أصغى فقط .

الجلاد : حسن ... هل أنت مستعد ؟ ...

المحكوم عليه : لماذا ؟ ... ألست أنت الذى سيغنّى ؟ ...

الجلاد : بلى ... ولكن من الضرورى أن تكون أنت
مستعدا للاستماع ! ...

المحكوم عليه : وهل أستطيع شيئا آخر ؟ ! ... إنك قد تركت لى أذنى
حرة طليقة ... من أجل ذلك بلا ريب ! ...

الجلاد : إذن . فلنبدأ ! ... هذه الأغنية الرقيقة وعنوانها
« الزهرة والبستانى » ... أنا الذى نظمتها ...

نعم نظمتها بنفسي ! ...

المحكوم عليه : أعرف ذلك .

الجلاد : عجبا ! ... من قال لك ؟ ...

المحكوم عليه : أنت بفمك منذ لحظة ! ...

الجلاد : حقا ... حقا ؟ ... والآن هل تريد أن أبدأ ؟ ...

المحكوم عليه : ابدأ ؟ ...

الجلاد : هأنذا أبدأ ... استمع ... ولكنك لا تستمع ! ...

المحكوم عليه : إني أستمع .

الجلاد : يجب أن يكون الاستماع بغاية الانتباه ! ...

المحكوم عليه : بغاية الانتباه ! ...

الجلاد : حذار أن تخجلني بشرود ذهنك، أو عدم اهتمامك؟ ...

المحكوم عليه : إني مهتم ! ...

الجلاد : هل أنت مستعد ؟ ...

المحكوم عليه : نعم ! ...

الجلاد : لست أراك متحمسا غاية التحمس ! ...

المحكوم عليه : وكيف أفعل ذلك ؟ ...

الجـــلاد : أريد أن تلتهب بالحماسة التهابا ... اذكر لى أنك تلح وتلح فى أن تستمع إلى غنائى ! ...

المحكوم عليه : ألح وألح ...

الجـــلاد : إنك تقولها بفتور وبرود ! ...

المحكوم عليه : برود ؟ ! ...

الجـــلاد : نعم ... أريد أن يكون الإلحاح صادرا من أعماق قلبـــك ! ...

المحكوم عليه : إنه من أعماق قلبى ! ...

الجـــلاد : إنى لاأستشعر حرارة الإخلاص فى صوتك ! ...

المحكوم عليه : الإخلاص ؟ ! ...

الجـــلاد : نعم ... إنه لا يبدو فى نبرات صوتك ؛ لأن النبرات والخلجات تنم عن حقيقة المشاعر ... وصوتك فاتر بارد ! ...

المحكوم عليه : وأخيرا ؟ ! ستغنى ؟ ... أو لن تغنى ؟ ! ...

الجـــلاد : لن أغنى .

المحكوم عليه : الحمد لله ! ...

الجـــلاد : تحمد الله على عدم غنائى ؟ ! ...

المحكوم عليه : بل أحمد الله دائما على غنائك أو عدم غنائك على السواء ! ... ولا أحسب هنالك من يعترض على حمد الله فى كل الأحوال ! ...

الجـــلاد : إنك فى قرارة نفسك تتمنى ألا أغنى ! ...

المحكوم عليه : قرارة نفسى ؟ ! ... وهل يعلم السرائر إلا الله؟! ...

الجـــلاد : إذن تريد أن أغنى؟ ...

المحكوم عليه : إذا شئت ! ...

الجـــلاد : سأغنى .

المحكوم عليه : غنِّ .

الجـــلاد : لى الآن شرط : توسل إلى - أولا - أن أغنى ! ... قدم إلى توسلاتك ! ...

المحكوم عليه : أتوسل إليك ...

الجـــلاد : قلها برقة واستعطاف! ...

المحكوم عليه : أرجوك ... أتوسل إليك ... بربك ورب الخلق أجمعين ! ... أسأل الله الواحد القهار ، القوى الجبار ، أن يلين قلبك القاسى ، فتصغى إلى التماسى وتمن على وتتفضل بالغناء ! ...

الجـــلاد : مرة أخرى ! ...

المحكوم عليه : ماذا ؟ ...

الجـــلاد : كرر هذا التوسل والالتماس ! ...

المحكوم عليه : سبحان الله ! ... ارحمنى ! ... إنك أهلكتنى بكل هذا التمنع والدلال ! ... غن إذا كنت تريد أن تغنى ، وإلا فاتركنى بربك لحالى وما أنا فيه ! ...

الجـــلاد : غضبت؟ !...لست أحب أن تغضب ! ... سأغنى لأهدىء ثورة نفسك ، وأزيل كدر صفوك ! ... هأنذا أبدأ ! ...

« يسعل ، ثم يترنم بصوت خافت تمهيداً للغناء . . . . »

المحكوم عليه : أخيراً ! ...

الجـــلاد « يقف فجأة » : إذا كنت تفضل ألا أغنى فقلها صراحة ! ...

المحكوم عليه : يا إله السماوات ! ... إنه سيعود ! ...

الجـــلاد : أنفد صبرك ؟ ...

المحكوم عليه : وأى نفاد ؟ ! ...

الجـــلاد : أأنا أعذبك ؟ ...

المحكوم عليه : وأى عذاب ! ...

الجـــلاد : صبرا جميلا يا عزيزى ! ... صبرا جميلا ! ...

المحكوم عليه : إن هذا الجلاد يعدمنى إعداما ! ...

الجـــلاد : ماذا تقول ؟ ...

المحكوم عليه : لم أعد أحتمل ! ...

الجـــلاد : لم تعد تحتمل انتظاراً ... يا لك من مضنى مسكين ،

أحرقه الشوق إلى غنائى ! ... سأبدأ إذن ! ...
لن أجعلك تنتظر طويلا ! ... هأنذا أبادر ! ...
استمع ! ... ها هى ذى الأغنية الرقيقة ! ...

« يتنحنح ويترنم ، ثم يغنى بصوت الثمل السكران : . . . . »

يا زهرة عمرها ليـــلة ! ...
عليك السلام من المعجبين ،
إذا أذن الفجر غـدا تقطفين ،
ويسقط عنك رداء الندى ! ...
وفى ســـلة من حطب ترقدين ،
وتخفت من حولك ألحـانى ! ...
ويبرق فى الجو نصل الردى ؛
مضيئا فى يد البستـانى ! ...
يا زهرة عمرها ليـــلة ! ...
عليك السلام ، عليك السلام ! ...

« صمت . . . . »

الجــــلاد : لماذا أنت صامت ؟ ... ألا تستحسن ؟ ! ... هذا وقت الاعجاب والاستحسان ! ...

المحكوم عليه : أهذه أغنيتك الرقيقة يا جلاد النحس ! ؟ ...

الجــــلاد : من فضــــلك ! ... إنى لسـت جـــلادا ! ...

المحكوم عليه : ومن تـكون ؟ ...

الجــــلاد : أنا بستانى ...

المحكوم عليه : بستانى ؟ ! ...

الجــــلاد : نعم بستـانى ! ... أتفـــهم ؟ ... بستانى ! ... « يصيح عالا » أنا بـ ... سـ ... تا ... نى ! ...

« تفتح نافذة فى منزل الثانية ، وتطل منها الخادمة . . . . »

الخـادمة : ما هـذه الجلبة ؟ ... ما هـذا الضجيج والناس نيـام ! ... مولاتى تشـكو الصداع ، وتريد النوم الهادئ ! ...

الجـــلاد « ساخرا » : مـولاتك ؟ ! ... « يضحك هازئا »
مولاتهـا ! ...

الخـادمة : قلت لك كف عن هذا الصخب ! ، ...

الجـــلاد : أغرب عن وجهى ياخادم الفجور والخنا ! ...

الخـادمة : لا تسب مولاتى ! ... إنها لو شاءت لكان لها
عشرون كناساً من أمثالك ، يكنسون التراب
من تحت حذائها ! ...

الجـــلاد : خرست وخسئت يا قذارة القاذورات ! ...

« الغانية تظهر فى النافذة خلف خادمتها »

الغانيـــة : ماذا حدث ؟ ! ...

الخـادمة : هذا الجلاد المخمور ، يعربد و يقذفنا بالسباب ! ...

الغانيـــة : أو يجرؤ ؟ ! ...

الجـــلاد « مشيرا إلى النافذة » : ها هى ذى ـ بجلالتها ـ مولاتها
المشهورة ! ...

الغانيـــة : بعض الاحترام · أيها الرجل ! ...

الجـــلاد « يضحك ساخرا » : الاحترام ؟ ! ...

الغانيـــة : نعم ، ولا ترغمنا على تعليمك كيف تحترم السـيدات ! ...

الجـــلاد : السيدات ! ؟ ... « يضحك » السيدات ! ؟ ... إنها تقول السيدات ؟ ! ... اسمعوا وتعجبوا ! ...

الغانيـــة « لخادمتها » : انزلى إليه ولقنيه درسا فى الأدب ! ...

الخـادمة « للجلاد » : انتظرنى إذا كنت رجلا ! ...

« تختفى المرأتان من النافذة . . . . »

الجـــلاد « للمحكوم عليه وقد أفاق قليلا » : ماذا تنوى أن تفعل هذه ... الشيطانة ؟ ... هل تعرف أنت ؟ ... إنها لقادرة على كل كبيرة ! ... أرأيت كيف هددتنى وتوعدتنى ؟ ...

الخـادمة « تخرج من باب المنزل رافعة فى يدها نعلا » : تعال هنا ! ...

الجـــلاد : ماذا ستفعلين بهذه النعل ؟ ...

الخـادمة : هذه النعل هى أقذر ما وجدت فى الدار وأعتق ...

أتفهم ؟ ... ولم أعثر على أعتق منها ولا أقذر ،
مما يليق بوجهك القبيح الأغبر ...

الجـــلاد : ها هو ذا قدح النبيذ اللذيذ قد طار من رأسى ! ... أسمعت كلامها المهذب النظيف أيها المحكوم عليه ؟ ! ...

المحكوم عليه : نعم ! ...

الجـــلاد : ولا تنبس بحرف ؟ ! ...

المحكوم عليه : أنا ؟ ...

الجـــلاد : ولا تحرك ساكناً ؟ ! ...

المحكوم عليه : كيف ؟ !...

الجـــلاد : تتركها هكذا تلحق بى الإهانات وأنت صامت ؟ ! ...

المحكوم عليه : وماذا تريد أن أصنع ؟ ...

الجـــلاد : افعل شيئا ! ... قل شيئا على الأقل ! ...

المحكوم عليه : وماشأنى وهذا الموضوع ؟ ! ...

الجـــلاد : يالقلة الشهامة ، وسقوط الهمة ! ... تراها وقد رفعت فى يدها النعل كما يرفع الحسام أو الصارم الصمصام ، ولا تهب ؛ لتدافع عنى ؟ ! ... تقف هكذا مكتوف اليدين ! ... تتفرج بغير اكتراث ! ... وتصغى بدون اهتمام إلى إهانتى وتحقيرى وسبى ! ... ليس هذا والله من المروءة فى شىء ! ...

المحكوم عليه : حقا ! ...

الخـادمة « تهز النعل بيدها » : اسمع أيها الرجل ! ... دع هـذا المسكين و شأنه ! ... واجهنى أنا إذا كانت لديك الشجاعة ! ... حسابك معى أنا ... لقد أسأت أدبك معنا ، وعليك أن تقدم إلينا اعتذارا و تطلب منا الصفح . وإلا فورب العزة صاحب الملكوت وواهب الجبروت ...

الجـــلاد « فى رفق » : مهلا ! ... مهلا ! ...

الخـادمة : تـكلم ! ... ماجوابك ؟ ...

الجـــلاد : التفاهم ! ...

الخـادمة : اطلب الصفح أولاً ! ...

الجـــلاد : إلى من أطلب الصفح ؟ ... إليك أنت ؟ ...

الخـادمة : إلى مولاتى ...

الجـــلاد : أين هى ؟ ...

الغانيــة « تظهر على عتبة دارها » : ها أنذى ! ... أهو اعتذر؟...

الخـادمة : سيفعل يا سيدتى ! ...

الجـــلاد : نعم ياسيدتى ! ...

الغانيــة : حسن ... وأنا قبلت اعتذارك ! ...

الجـــلاد : فقط يا سيدتى ... ألا يحسن أن تعود المياه إلى مجاريها ؟ ...

الغانيــة : لقد عادت ! ...

الجـــلاد : أقصد عودة النبيذ إلى مجارى رأسى ! ...

الغـانية : ماذا تعنى ؟ ...

الجـــلاد : أعنى أن هنالك تلفا يحتاج إلى إصلاح ...

خادمتك النشيطة أخرجت ما كان فى رأسى من
نشوة ، فمن ذا يملأ فراغ رأسى ! ؟ ...

الغانيـــة : أنا أتولى ملء رأسك ! ... خذ من الخمار على نفقتى ما شئت من شراب ! ...

الجـــلاد : شكرا لك أيتها السيدة السخيّة ! ...

« يشير الجلاد إلى الخمار الواقف بباب حانه كى يأتى إليه بقدح . . . . »

المحكوم عليه « الغانية » : ألا تعرفينى أيتها الجميلة ؟ ...

الغانيـــة : بالطبع أعرفك ... منذ اللحظة الأولى ... ساعة أن جاءوا بك إلى هنا فى مطلع الليل ... أبصرتك من نافذتى وعرفتك ، وأحزننى أن أراك فى الأغلال ، لكن ... ما هى الجريمـــة التى ارتكبتها ؟ ...

المحكوم عليه : لا شىء يذكر ... كل ما حدث هو أنى قلت ...

الجـــلاد « يفطن إليه ويصيح به » : حذار ! ... حذار ! ...

أغلق فمك ! ...

المحكوم عليه : أغلقت فمى ! ...

الغانيـــة : لقد حاكموك طبعا ؟ ...

المحكوم عليه : لا ...

الغانيـــة : ماذا تقول ؟ ... ألم تحاكم ؟ ! ...

المحكوم عليه : ولم أقدم إلى محكمة ... لقد أرسلت مظلمة إلى السلطان ، أسأله حقى فى أن أمثل بين يدى قاضى القضاة ، أعدل من حكم بالذمة والضمير ، وأنزه من تمسك بالشرع ، وأخلص حام لقداســة القانون ... لكن ... ها هو ذا الفجر يقترب ، والجلاد قد تلقى الأمر بضرب رقبتى عنــد أذان الفجر ! ...

الغانيـــة « متطلعة إلى السماء » : الفجر ؟ ! ... إن الفجر يكاد يبزغ ... انظر إلى السماء ! ...

الجـــلاد « وفى يده قدح تلقاه من الخمار » : ليست السماء ياسيدتى

العزيزة هي التي ستقرر ساعة هـــذا المحكوم عليه ... ولكنها مئذنة هذا المسجد ... إني في انتظار المؤذن ! ...

الغانيـــة : المؤذن ؟ ... إنه لاشك في الطريق ... إني أسهر حتى الصباح أحيانا ، فأراه في مثل هذه الساعة متجها إلى المسجد ! ...

المحكوم عليه : إذن قد حانت ساعتي ! ...

الغانيـــة : لا ... ما دامت مظلمتك لم تفحص بعد ! ...

المحكوم عليه : هـــذا الجلاد لن ينتظر نتيجة المظلمة ... أليس كذلك أيها الجلاد ؟ ...

الجـــلاد : لن أنتظر سوى المؤذن ... تلك هي الأوامر ! ...

الغانيـــة : أوامر من ؟ ... السلطان ؟ ...

الجـــلاد : تقريبـا ! ...

المحكوم عليه « صائحا » : تقريبا ؟ ! ... ألم يكن إذن هـــو السلطان ؟ ! ...

الجـــلاد : الوزير ... وأوامر الوزير هي أوامر السلطان ! ...

المحكوم عليه : إنى إذن ميت لا محالة ! ...

الجـــلاد : هو ذاك ... ما إن يصعد أذان المؤذن إلى السماء ، حتى تصعد روحك معه ... إن هذا ليحز فى نفسى أسى ، ويعتصر قلبى حزنا . ولكن العمل هو العمل . والمهنة هى المهنة ! ...

الغانيـــة «ملتفتة إلى الطريق» : يا للمصيبة !...هاهو ذا المؤذن قد وصل !

المحكوم عليه : قضى الأمر ! ...

« المؤذن يظهر . . . . »

الجـــلاد : أسرع أيها المؤذن . نحن فى انتظارك ! ...

المؤذن : فى انتظارى ؟ ... لماذا ؟ ! ...

الجـــلاد : لتؤذن الفجر ! ...

المؤذن : أتريد الصلاة ؟ ...

الجـــلاد : أريد أن أقوم بعملى ! ...

المؤذن : وما شأنى بعملك ؟ ...

الجلاد : عندما يصعد صوتك إلى السماء تصعد معه روح هذا الرجل ! ...

المؤذن : أعوذ بالله ! ...

الجلاد : تلك هى الأوامر ! ...

المؤذن : حياة هذا الرجل متعلقة بحبال صوتى ! ؟ ...

الجلاد : نعم ! ...

المؤذن : لا حول ولا قوة إلا بالله ! ...

الجلاد : بادر أيها المؤذن إلى عملك حتى أقوم بعملى ! ...

الغانية : وفيم العجلة أيها الجلاد اللطيف ؟ ! ... صوت المؤذن قد أثر فيه برد الليل ، وهو محتاج إلى شراب ساخن ... اصعد إلى دارى أيها المؤذن ! ... سأعد لك ما يصلح صوتك ...

الجلاد : والفجر ؟ ...

الغانية : الفجر بخير ، والمؤذن أدرى بوقته .

الجـــلاد : وعملى ؟ ...

الغانيـــة : عملك بخير ، ما دام المؤذن لم يؤذن بعد للفجـــر ! ...

الجـــلاد : أتوافق أيها المؤذن ؟ ...

الغانيـــة : إنه موافق على دعوتى الصغيرة لوقت قصير ، فهو من خيرة معارفى فى الحى ! ...

الجـــلاد : والمصلون فى المسجد ؟ ...

المؤذن : ليس فى المسجد غير رجلين ... أحدهما غريب عن المدينة ، قد اتخذ المسجد مأوى ، والآخر متسول قد اعتصم به من برد الليل ... والكل يغط الآن فى نوم عميق ، وقلما استمع أحد إلى أذان الفجر فى هذا الشتاء ! ... ولا ينهض منهم إلا من ركلتـــه بقدمى ليستيقظ ويؤدى الفريضـــة ! ...

الغانيـــة : وأهل الحى أغلبهم من المترفين ، وأكثرهم

نؤوم الضحى ! ...

الجـــلاد : قصدكما أن الفجر لن يؤذن له اليوم ؟ ! ...

الغانيـــة : قصدنا التأنى ، وفى التأنى السلامه ، وفى العجلة النـدامة ! ... لاتشغل بالك ! ... إن الفجر سيؤذن له فى حينه ، وأنت على كل حال فى مأمن ، ولا تبعـة عليك ... المؤذن وحده هو المسئول ... هلم بنا أيهـا المؤذن ! ... فنجان من القهوة فيه لصوتك شفاء وصفاء ! ...

المؤذن : لابأس بوقت قصير ، وفنجان صغير ...

« الغانية تدخل دارها بالمؤذن . . . »

الجـــلاد « للمحكوم عليه » : أرأيت ؟ ! ... بدلا من أن يصعد إلى المئـذنة ، صعـــد إلى بيت الـ ... محترمة ! ! ! ... هذا هو المؤذن ! ...

المحكوم عليه : رجل شهم ! ... يخاطر بكل شيء ! ... أما أنت ؟ ... أنت الذى لن يوجه إليه عتب ولا

لوم ... أنت الآمن المغطى بعذرك ، الخالى من
التبعة ، المالك لحجتك ، تثور هكذا وتهتاج
وترتاع ؟! ... هدىءمن روعك قليلا ياصديقى !...
تجمل بالأناة والصبر ! ... وتوكل على الله ! ...
اسمع ! ... لدى فكرة ! ... فكرة طيبة
نيرة ... فيها لك تهدئة الخاطر ، ومتعة النفس ،
وانشراح الصدر ! ... غن لى أغنيتك الرقيقة ...
مرة أخرى ! ... بصوتك العذب الرخيم ،
وأقسم لك إنى سأستمع إليها بقلب ينتفض
حماسة وإعجابا ... هلم ! ... غن ! ... إنى مصغ
إليك بكل جوارحى ! ...

الجـــلاد : لم تعد بى رغبة ! ...

المحكوم عليه : لماذا ؟ ... ما الذى كدر صفوك ؟ ... ألأنك
لم تطح برأسى ؟ ...

الجـــلاد : لأنى حدت عن واجبى ! ...

المحكوم عليه : واجبك هو تنفيذ الحكم عند أذان الفجر ! ...
لكن من الذى يؤذن للفجر ؟ ... أنت ؟ ...
أم المؤذن ؟ ...

الجـلاد : المؤذن ! ...

المحكوم عليه : وهل فعل ؟ ...

الجـلاد : لا ...

المحكوم عليه : إذن ... ما ذنبك أنت ؟ ...

الجـلاد : حقا ... لا ذنب لى ...

المحكوم عليه : هذا هو ما نقوله جميعا ! ...

الجـلاد : إنك تعزينى وتهون على ...

المحكوم عليه : إنى أقول الحقيقة ! ...

الجـلاد « يلتفت إلى مشارف الطريق ويصيح » : ما هذه
الجموع ! ! ... يا لله ! ... إنه موكب الوزير ! ...
إنه الوزير ! ...

المحكوم عليه : لا ترتعد هكذا ! ... هدىء من روعك ! ...

الجـــلاد : لاجناح على ... إنى مغطى ... أليس كذلك ؟ ...

المحكوم عليه : اطمئن ! ... مغطى بألف دثار من الحجج والمعاذير ! ...

الجـــلاد : إنه المؤذن اللعين الذى سيؤدى الحساب العسير ! ...

« الوزير يظهر بين حراسه . . . »

الوزير « صائحا » : عجبا ! ... ألم يعدم بعد هذا المجرم ؟ ...

الجـــلاد : نحن فى انتظار الفجر يا مولاى الوزير ! ... حسب أوامرك ! ...

الوزير : الفجر ؟ ! ... إن الفجر قد صليناه فى مسجد القصر بحضور مولانا السلطان وقاضى القضاة ! ...

الجـــلاد : ليس الذنب ذنبى يا سيدى الوزير ... إن مؤذن هذا المسجد لم يصعد بعد إلى المئذنة ! ...

الوزير : كيف ذلك ؟ ! ... هذا أمر لا يعقل ! ... أين هو هذا المؤذن ؟ ...

« المؤذن يخرج من باب الدار متسللا ، ويحاول الاختفاء خلف الغانية وخادمتها »

الجـــلاد « يلمحه ويصيح » : ها هو ! ... ها هو ذا ! ...

الوزير « للحراس » : أحضروه ! ... « يحضرونه إليه » هل أنت مؤذن هذا المسجد ؟ ...

المؤذن : نعم يا مولاى الوزير ! ...

الوزير : لماذا لم تؤذن للفجر حتى الآن ؟ ...

المؤذن : من قال ذلك يا مولاى الوزير ؟ ... لقد أذنت للفجر منذ وقت مضى ...

الوزير : أذنت للفجر ؟ ...

المؤذن : فى موعده ، شأنى فى كل يوم ، وقد سمعنى من سمع .

الغـــانية : حقا ، لقـد سمعناه كلنا يؤذن للفجر من فوق مئذنتـــه ...

الخـادمة : نعم ... اليوم كعادته فى كل الأيام فى مثـل هذا الوقت ! ...

الوزير : ولـكن هذا الجلاد يزعم ...

الغانيـــة : هذا الجلاد كان مخموراً ، وكان يغط فى النوم! ...

الخادمة : وكان غطيطه يتصاعد إلينا ويوقظنا من لذيذ الرقاد ! ...

الوزير « للجلاد المندهش » : أهكذا تنفذ أوامرى ! ؟ ...

الجلاد : أقسم ! ... أقسم ! ... يا سيدى الوزير ...

الوزير : كفى ! ...

« الجلاد يعقد لسانه الذهول . . . . »

المحكوم عليه : أيها الوزير ! ... ألتمس إليك أن تصغى إلى : لقد بعثت إلى مولانا السلطان بظلامة ...

الجلاد « يفطن ويصيح » : أقسم يا سيدى الوزير أنى كنت متنبها ...

الوزير : قلت لك كفى ! ... « ثم يلتفت إلى المحكوم عليه » نعم ظلامتك علم بها مولانا السلطان ، وقد أمر أن تحاكم أمام قاضى القضاة ... وسيحضر مولانا السلطان بنفسه محاكمتك ... تلك رغبته الكريمة وأمره الذى لا يرد ... أيها الحراس ! ... أخلوا

الساحة من الناس ، وليدخل كل داره . إن هذه المحاكمة يجب أن تجرى فى نطاق السرية التامة .

« الحراس يخلون الساحة من الناس . »

الجلاد : يامولاى الوزير ! ... « يحاول أن يشرح الأمر ولكن الوزير يبعده باشارة »

« السلطان يظهر فى موكبه ، وفى صحبته قاضى القضاة . . . . »

المحكوم عليه « صائحا » : يا مولانا السلطان ! ... العدل ! ... ألتمس العدل ! ...

السلطان : أهذا هو المتهم ؟ ...

المحكوم عليه : يامولانا السلطان ! ... إنى لم أرتكب ذنبا ولا جرما ! ...

السلطان : سنرى ! ...

المحكوم عليه : ولم أحاكم بعد ... لم أحاكم ! ...

السلطان : ستحاكم المحاكمة العادلة ، وفقا لرغبتك ، وسيتولى محاكمتك قاضى القضاة فى حضرتنا ! . . .

« يصدر السلطان إشارة إلى قاضى القضاة
ليشرع فى المحاكمة ، ثم يجلس فى مقعد أعدله
ويقف الوزير إلى جواره . . . . . »

القـاضى « يجلس على مقعد له » : فكوا قيود المتهم ! ...

« يفك أحد الحراس أغلال المحكوم عليه » اقترب

يا هذا ! ... ماهى جريمتك ؟ ...

المحكوم عليه : لم أرتكب جرما ! ...

القـاضى : وما هو الاتهام المنسوب إليك ؟ . . .

المحكوم عليه : سل الوزير عنه ! ...

القـاضى : إنى أسألك أنت ! ...

المحكوم عليه : ما فعلت شيئا قط سوى أنى لفظت كلمة بريئة ،

لا خطر فيها ولا ضرر ! . . .

الوزير : إنها كلمة مروعة أثيمة ! ...

القـاضى « للمحكوم عليه » : ما هى هذه الكلمة ؟ ...

المحكوم عليه : لست أحب أن أعيدها ...

الوزير : الآن لا تحب ... أما فى وسط السوق وبين جموع الناس ...

القاضى : ما هى هذه الكلمة ؟ ...

الوزير : قال إن مولانا السلطان النبيل العظيم إن هو إلا عبد رقيق ...

المحكوم عليه : كل الناس يعلم هذا ... وما هو بالأمر الخافى ...

الوزير : لا تقاطعنى ... وزعم أنه هو النخاس الذى تولى بيع سلطاننا فى صباه إلى السلطان الراحل ! ...

المحكوم عليه : هذا صحيح . وأقسم بالأيمان المغلظة ، وإنها لوثيقة فخار لى أعتز بها أبد الدهر .

السلطان « للمحكوم عليه » : أنت ؟ ! ... بعتنى إلى السلطان الراحل ؟ ! ...

المحكوم عليه : نعم ! ...

السلطان : متى كان ذلك ؟ ...

المحكوم عليه : منذ خمس وعشرين سنة خلت يا مولاى . كنت

صبيا صغيراً فى السادسة ، ضالا متروكا فى قرية
شركسية دهمها المغول . وكنت غاية فى الذكاء
والحكمة أكثر مما ينبغى لسنك . ففرحت بك
وحملتك إلى سلطان هذه البلاد ، فنفحنى ثمنا لك
ألف دينار .

السلطان « ساخرا » : ألف دينار ... فقط ؟ ! ...

المحكوم عليه : كنت تساوى أكثر من ذلك بالطبع . ولكنى
كنت حديث عهد بالمهنة . لم أكن قد جاوزت
السادسة والعشرين . وكانت تلك الصفقة هى
بداية عملى ، وقد فتحت لى طريق المستقبل ! ...

السلطان : لك ولى ! ...

المحكوم عليه : حمدا لله ! ...

السلطان : أهذا مما يستحق الموت أن تأتى بى إلى هذه
البلاد ؟ ... إنى أرى الأمر على النقيض ...

الوزير : إنه يستحق الموت لثرثرته وانفلات لسانه ...

السلطـان : لست أرى ضررا بالغا فى أن يقول أو يذيع
أنى كنت عبدا رقيقا ... السلطان الزاحل نفسه
كان كذلك ... أليس هذا صحيحا أيها الوزير ؟...

الوزير : هذا صحيح ... ولـكن ...

السلطـان : أليس الأمر كذلك يا قاضى القضاة ؟ ...

الوزير : حقا أيها السلطان ! ...

السلطـان : إنها لأسرة برمتهـــا من قدماء العبيد الأرقاء ،
سلاطين المماليك ... الجميع جلبوا منذ نعومة
أظفارهم إلى القصور ، حيث نشئوا التنشئة القوية
القويمة ، ليصبحوا فيما بعد حكاما وقادة للجيوش
وسلاطين على البـلاد ... وما أنا إلا واحد من
هؤلاء . لم أشذ عنهم ولم أختلف ...

المحكوم عليه : بل أنت من خيرهم حكمة وسدادا ... أبقاك الله
ذخرا لرعيتك ! ...

السلطـان : ومع ذلك ... لست أذكر وجهك ... بل إنى لست

أذكر بوضوح أيام طفولتي في تلك القرية الشركسية
التي تتحدث عنها وتقول : إنك وجدتني فيها ، كل
ما أستطيع تذكره وتبينه هو : طفولتي بالقصر في
كنف السلطان الراحل . لقد كان يعاملني كأني
ابنه الحقيق إذ لم تكن له ذرية . وقدر بأني ونشأني
لأتولى الحكم . وكنت أعلم حقا علم اليقين أنه لم
يكن أبي .

المحكوم عليه : أبواك قتلا بيد المغول ! ...

السلطان : ما حدثني أحد قط عن أبوي ... كنت أعلم فقط
أنه قد جئ بي إلى القصر وأنا في سن صغيرة .

المحكوم عليه : وأنا الذي جاء بك ! ...

السلطان : ربما ...

المحكوم عليه : وإذن يا مولاي ... ما هي جريمتي ؟ ...

السلطان : لست والله أدري ... سل من اتهمك ! ...

الوزير : ليست تلك هي جريمته الحقيقية ! ...

السلطان : أهناك جريمة حقيقية ؟ ...

الوزير : أجل يامولاى . القول بأنك كنت عبدا رقيقا ليس فيه حقا ما يشين ولا ما يدين ، كل السلاطين المماليك كانوا كذلك ... ليست هنا الجريمة ، ولكن السلطان المملوك كان يعتق عادة قبل جلوسه على العرش . . .

السلطان : وبعد ؟ . . .

الوزير : وبعد يا مولاى ... هذا الرجل يزعم أنك لم تعتق حتى الآن . وأنك لم تزل رقيقا . وأن صفة العبودية ما تزال لاصقة بك ... وأن العبد لا يجوز له أن يحكم شعبا حرا .

السلطان « للمحكوم عليه » : أقلت ذلك حقا ؟ ! ...

المحكوم عليه : لم أقل كل ذلك ؛ إنهم الناس فى السوق يحلو لهم دائما هذا النوع من اللغط والثرثرة . . .

السلطان : ومن أين جاءك أنى لم أعتق ؟ .

المحكوم عليه : لست أنا الذى قالها . إنهم ينسبون إلى كل قبيح من القول ! . . .

السلطان : ولكنهم يثرثرون ويلغطون على كل حال ! . . .

المحكوم عليه : لست أنا ! . . .

السلطان : أنت أو غيرك . لم يعد هذا يهم . . . المهم الآن هو أن يعلم الناس جميعا فى كل مكان أن تلك محض أكذوبة . . . أليس الأمر كذلك يا قاضى القضاة ؟ . . .

القاضى : الواقع يا مولاى . . .

السلطان : هذا محض زور وبهتان . هذا محض اختلاق لا يستقيم معه عقل ولا منطق . . . لم أعتق بعد ؟ . . . أنا ؟ ! . . . أنا الذى كان قائدا للجيوش وقاهرا للمغول . الذراع الأيمن للسلطان الراحل ، والخلف الذى أعده ليحكم من بعده . كل هذا وما فكر السلطان قبل وفاته فى عتقى ؟ ! . . . أهذا معقول ؟ . . .

اسمع أيها القاضى ! ما عليك الآن إلا أن تطلق المنادين يعلنون فى المدينة التكذيب الرسمى ، وينشرون على الناس نص الوثيقة المسجلة بعتق ، وهى ، ولا شك ، محفوظة فى خزائنك . . . أليس كذلك ؟ ! . . .

القاضى : « يمشط لحيته بأصابعه » : تقول يا مولاى . . .

السلطان : ألم تسمع ما قلت ؟ . . .

القاضى : بل إنى . . .

السلطان : كنت مشغولا بمداعبة لحيتك بأصابعك ! . . .

القاضى : يا مولاى السلطان ! . . .

السلطان : ماذا ؟ ... مولاك السلطان يكلمك بلغة بسيطة واضحة ، لا تحتاج إلى طويل تأمل ، ولا عميق تفكير . . . كل ما فى الأمر هو أنه قد أصبح من الضرورى إعلان تلك الوثيقة...أفهمت؟...

القاضى : نعم ! ...

السلطان : ما زلت تداعب لحيتك بأصابعك ؟ ... هلا تركتها وشأنها الآن قليلا ؟ ! ...

الوزير « يتدخل » : مولاى ! ... أتأذن لى فى أن ...

السلطان : ماذا بك ؟ ... أنت أيضا ؟ ...

الوزير : إنى أسأل مولاى السلطان أن ...

السلطان : ما كل هذا الارتباك ؟ ! ... أنت وهو على السواء ...

القاضى : يحسن تأجيل هذه المحاكمة إلى وقت آخر ... فإذا صرنا على انفراد يا مولاى ...

الوزير : نعم ... هذا هو الأفضل ! ...

السلطان : بدأت أدرك ...

« يأمر الوزير بإشارة منه أن يبتعد الجميع بالمحكوم عليه . . . .

السلطان : ها نحن قد صرنا على انفراد ... ماذا لديكم من القول ! ... وإن كنت أرى على سحنتيكما ما يوحى ويفصح ...

القاضى : أجل يا مولاى ... لقد أدركت بفطنتك ... فى الواقع لاتوجد وثيقة عتق لك فى خزائنى .

السلطان : لعلك لم تتسلمها بعد ، ولكنها لابد أن تكون موجودة فى مكان ما ... أليس كذلك أيها الوزير ؟! ...

الوزير : فى الحقيقة يا مولاى ...

السلطان : ماذا ؟ ! ...

الوزير : الحقيقة أنه ...

السلطان : تكلم ! ...

الوزير : ما من وثيقة هناك تثبت عتقك يا مولاى ! ...

السلطان : ماذا تقول ؟ ...

الوزير : لقد سقط السلطان الراحل فجاءة على أثر أزمة فى القلب ، وتوفاه الله قبل أن يعتقك ...

السلطان : ما هذا الذى تزعمه أيها الشقى !؟ ...

الوزير : إنى شقى حقا يا مولاى ... ومجرم أثيم ... هذا

مالا أنكر . كان من واجبي تدبر هذا الأمر فى حينه .
لكن موضوع العتق هذا لم يخطر لى على بال . كان
رأسى ممتلئا بأمور أخرى جسام . لقد كنت أنت
يا مولاى وقتئذ بعيدا . . . فى حومة القتال . ولم
يكن أحد غيرى قائما قرب فراش السلطان الذى يحتضر .
لقد نسيت هذا الموضوع تحت وطأة الموقف ، وجلال
الحدث ، وشدة الأسى . ما كان شىء يشغلنى فى
تلك اللحظة إلا تأدية اليمين - بين يدى المحتضر - أن
أخدمك يا مولاى بعين الإخلاص الذى خدمته به
طول حياته .

السلطان : حقا ، هأنتذا قد خدمتنى ! . . .

الوزير : إنى مستحق للموت . . . أعرف ذلك ؛ فهذا جرم
لا يغتفر ، إن السلطان الراحل ما كان يستطيع أن يفكر
فى كل شىء ، أو يذكر كل شىء . إنه لمن صميم عملى
أنا أن أفكر له وأن أذكره بالخطير من الأمور .

كان من واجبي أنا حقا أن أعرض عليه موضوع العتق ، بما له من أهمية خاصة ، وأن أعد ما يقتضيه من إجراءات شرعية ... ولكن مقامك العالى يا مولاى ونفوذك وهيبتك ومنزلتك العظيمة فى النفوس ؛ — كل تلك الصفات فى سموها جعلتنا نسهو عن حالة الرق والعبودية بالنسبة إليك ، وعن حاجة من كان فى مثل ارتفاعك إلى مثل هذه الحجج والوثائق . ما فطنت والله لهذا الأمر إلا فيما بعد ... عندما جلست يا مولاى على العرش ... عندئذ اتضح لى الموقف بأكمله . وتملكنى الهلع وكدت أجن . لولا أنى هدأت من روعى ، وتماسكت معللا النفس بأن هذا الموضوع لن يتاح له يوما ، أن يفتح أو يثار ...

السلطان : ها هو ذا قد فتح وأثير ! ...

الوزير : وا أسفاه ! ... ما كان لى أن أعلم أن رجلا مثل هذا سيأتى يوما يثرثر ويلغط ...

السلطان : ولهذا أردت أن تغلق فمه بإسلامه إلى الجلاد ! ...

الوزير : نعم ! ...

السلطان : وتدفن غلطتك بدفن هذا الرجل ...

الوزير « مطرقا » : نعم ! ...

السلطان : وما فائدة ذلك الآن ... والجميع يثرثرون ويلغطون ...

الوزير : إذا قطع رأس هذا الرجل، وعلق فى الساحة أمام الناس، فما من لسان، بعدئذ، يجرؤ على الكلام ! ...

السلطان : أتظن ... ؟

الوزير : إن لم يستطع السيف قطع الألسنة فماذا يستطيع إذن ... ؟

القاضى : أتأذن لى يامولاى بكلمة ؟

السلطان : إنى مصغ ...

القاضى : إن السيف قاطع حقا للألسنة والرؤوس . ولكنه ليس بقاطع فى المشاكل والمسائل ...

السلطان : ماذا تعنى ؟ ...

القاضى : أعنى أن المسألة ستظل دائما قائمة . وهى أن السلطان يحكم دون أن يحتـق ، وأنه عبد رقيق على شعب حر طليق ! ! . . .

الوزير : ومن يجرؤ على قول هذا ؟ . . . إن من يجرؤ يقطع رأسه ! . . .

القاضى : تلك مسألة أخرى ! . . .

الوزير : ليس من الضرورى لمن يحكم أن يحمل فى يديه الوثائق والحجج ! . . . لدينا أروع مثل وأقواه فى الأسرة الفاطمية . وكلنا يذكر ما فعل « المعز لدين الله الفاطمى » ! . . . يوم جاء يزعم أنه من نسل رسول الله صلوات الله عليه ، وأنه بهذا النسب له حق الحكم فى أرض مصر . فلما لم يصدقه الناس قام فيهم شاهرا سيفه ، وفاتحا صناديق ذهبه ، وهو يقول : «هذا حسبى . . . وهذا نسبى ! . . . فسكت الناس ، وحكم هو وذريته من بعده هادئين هانئين الأجيال الطويلة ! . . .

السلطان : ما تقول فى هذا أيها القاضى ؟ . . .

القاضى : أقول : إن هـذا صحيح من الوجهة التاريخية . . .
ولـكن . . .

السلطان : ولـكن ماذا ؟ . . .

القاضى : تريد إذن أيها السلطان العظيم أن تحل مشكلتك بهذه
الطريقة ! . . .

السلطان : ولم لا ؟ ! . . .

الوزير : حقا ! . . . ولم لا ! . . . مامن شىء أيسر من هذا ،
وبخاصة فى مسألتنا هذه . . . يكفى أن نعلن على الملإ
أن مولانا السلطان قد أعتق عتقـا شرعيا . . . أعتقه
السلطان الراحل قبل وفاته . . . وأن الوثائق والحجج
مسجلة ومحفوظة لدى قاضى القضاة ، والموت لمن يجرؤ
على تـكذيب ذلك ! . . .

القاضى : هنالك شخص سوف يكذب ذلك ؟ . . .

الوزير : من هو ؟ . . .

القاضى : أنا ...

السلطان : أنت ؟ ! ...

القاضى : نعم أنا يا مولاى ... إنى لا أستطيع أن أشترك فى هذه المؤامرة ! ...

الوزير : إنها ليست مؤامرة . إنها خطة لإنقاذ الموقف ...

القاضى : إنها مؤامرة ضد القانون الذى أمثله .

السلطان : القانون ؟! ...

القاضى : نعم أيها السلطان ... القانون ... أنت فى نظر الشرع والقانون ، لست سوى عبد رقيق ... والعبد الرقيق يعتبر — قانونا وشرعا — شيئا من الأشياء ومتاعا من الأمتعة . وبما أن السلطان الراحل المالك لرقبتك لم يعتقك قبل وفاته ، فأنت لم تزل شيئا من الأشياء ومتاعا مملوكا لآخر : وعلى هذا فأنت فاقد لأهلية التعاقد فى المعاملات العادية التى يزاولها بقية الناس الأحرار .

السلطان : أهذا هو القانون ! ؟ ...

القاضى : نعم ! . . .

الوزير : مهلا يا قاضى القضاة ! . . . نحن الآن لسنا فى صدد رأى القانون ، ولكنا فى صدد البحث عن الطريقة التى نتخلص بها من هذا القانون . . . وطريقة التخلص هى فى افتراض أن العتق قد وقع وتم ، ومادام الأمر سراً بيننا نحن الثلاثة ، وما من أحد سوانا يعرف الحقيقة : فمن الميسور أن نحمل الناس على تصديق . . .

القاضى : الأكذوبة . . .

الوزير : قل الحل . . . هذا اللفظ أليق وأنسب ! . . .

القاضى : الحل بواسطة الكذب . . .

الوزير : وما الضرر فى هذا ؟ . . .

القاضى : بالنسبة إليكما مامن ضرر . . .

الوزير : وبالنسبة إليك . . .

القاضى : بالنسبة إلىّ الأمر يختلف . فأنا لا أستطيع أن أكذب

على نفسى . ولا أستطيع التخلص من القانون وأنا الذى أمثله . ولا أستطيع الحنث بيمين عاهدت فيها نفسى على أن أكون الخادم الأمين للشرع والقانون ! . . .

السلطان : عاهدت فيها نفسك أمامى .

القاضى : وأمام الله وضميرى .

السلطان : معنى ذلك أنك لن تسير معنا ...

القاضى : فى هذا الطريق . . . لا . . .

السلطان : ولن تضع يدك فى أيدينا . . .

القاضى : على هذه الخطة . . . لا . . .

السلطان : إذن ... تستطيع فى هذه الحالة أن تنحى نفسك جانباً ولا تتدخل فى شىء ، وتتركنا نحن نفعل ما نشاء ... بهذا تصون يمينك ، وترضى ضميرك ...

القاضى : إنى آسف يا مولاى السلطان . . .

السلطان : لماذا . . . ؟

القاضى : لأنى الآن وقد علمت أنك فى نظر القانون فاقد

لأهلية التعاقد ، أرانى مضطرا إلى الحكم ببطلان كل تصرفاتك ...

السلطان : إنك مجنون ... هذا مستحيل ! ...

القاضى : لا أستطيع ، مع الأسف ، أن أصنع غير ذلك ، ما لم ...

السلطان : ما لم ؟ ...

القاضى : ما لم تأمر بعزلى من منصبى ، أو طردى من البلاد . أو قطع رأسى ! ... بهذا أتحلل من يمينى ، وتنطلق أنت على هواك تفعل ما تشاء ! ...

السلطان : أهو تهديد ؟ ! ...

القاضى : بل هو حل ...

الوزير : إنك تعقد لنا المشكلة ياقاضى القضاة ! ...

القاضى : إنى أعينكم على التخلص من عقبة ...

السلطان : بدأت أضيق بهذا الرجل ! ...

الوزير : إنه يعلم أننا فى قبضته ؛ إذ أن أقل عنف معه يفضح

كل شئ أمام الشعب ! ...

السلطان « للقاضى » : خلاصة القول : إنك لا تريد معاونتنا.

القاضى : بل إن ما أتمناه يا مولاى هو أن أكون لك معينا . ولكن ليس على هذا الوجه ...

السلطان : ماذا تقترح إذن ؟ ...

القاضى : تطبيق القانون .

السلطان : إذا طبقت أنت القانون فقدت أنا عرشى ...

القاضى : ليس هذا فقط .

السلطان : أهناك ما هو أسوأ ؟ ! ...

القاضى : نعم .

السلطان : ماذا هناك أيضا ؟ ! ...

القاضى : باعتبارك فى نظر القانون متاعا مملوكا للسلطان الراحل ، فقد أصبحت جزءا من ميراثه ، وبما أنه توفى عن غير وريث ، فقد آلت تركته إلى بيت المال . وعلى هذا فأنت الآن متاع من الأمتعة المملوكة لبيت المال ...

متاع عقيم ، لايدر ربحا . ولا يأتى بغلة . وإنى بصفتى أيضا خازنا لبيت المال ، أقول : إنه قد جرت العادة فى مثل هذه الأحوال على التخلص من المتاع العقيم ببيعه فى المزاد ، حتى لا تضار مصلحة بيت المال ، وحتى ينتفع بحصيلة البيع فيما يعود على الناس عامة والفقراء خاصة بالنفع ! ...

السلطان : متاع عقيم ؟ ! ... أنا ؟ ! ...

القاضى : إنى أتكلم بالطبع من الوجهة الشرعية ...

السلطان : حتى الآن لم أتلق منك حلولا . إنما أتلقى إهانات ! ...

القاضى : إهانات ؟ ! ... عفوا أيها السلطان العظيم ! ... إنك لتعلم حق العلم كم أجلك وأكبرك ، وفى أى مكان مرتفع أضعك ... وإنك لتذكر — ولا ريب — أنى منذ اللحظة الأولى كنت أول من بادر إلى مبايعتك والمناداة بك سلطانا آمرا على بلادنا . إن ما أفعله الآن إن هو إلا عرض صريح للموقف ، من وجهة نظر

الشرع والقانون .

السلطان : خلاصة الموقف إذن هى أنى شئ ومتاع ، ولست رجلا ولا إنسانا ! ...

القاضى : نعم ! ...

السلطان : وأن هذا الشىء أو المتاع مملوك لبيت المال ! ! ...

القاضى : حقيقة ! ...

السلطان : وأن بيت المال يتصرف فيما يملك من متاع لا غلة له ، بعرضه للبيع فى المزاد ، للمصلحة العامة ! ...

القاضى : تماما ...

السلطان : يا قاضى القضاة ! ... ألا ترى معى أن كل هـــذا عجيب وغريب ؟ ! ...

القاضى : حقا ... ولكن ...

السلطان : وأن كل هذا فيه كثير من الغلو والمبالغة والإغراق ! ...

القاضى : ربما ... ولكن باعتبارى قاضيا فإن الذى يهمى هو مركز الوقائع بالنسبة إلى نصوص القانون .

السلطان : اسمع أيها القاضى ! ... قانونك هذا لم يأتنى بالحل ، فى حين أن حركة صغيرة من سيفى كفيلة بأن تقطع عقدة المشكلة فى الحال ! ...

القاضى : إذن ... افعل ! ...

السلطان : سأفعل ... ماذا يهم سفك قليل من الدم فى سبيل صلاح الحكم ؟ ! ...

القاضى : يجب البدء عندئذ بسفك دمى ! ...

السلطان : سأفعل كل ما أراه ضروريا لصيانة أمن الدولة ، وسأبدأ فعلا بك ... وألقى بك فى السجن ... أيها الوزير ! ... اقبض على القاضى ! ...

الوزير : يا مولاى السلطان ، إنك لم تستمع بعد إلى جوابه عن سؤالك .

السلطان : أى سؤال ؟ ...

الوزير : السؤال عن الحل الذى يراه للمشكلة .

السلطان : لقد أجاب عن هذا السؤال .

الوزير : إن ما قال لم يكن هو الحل ، إنما هو عرض للموقف .

السلطان : أصحيح هذا أيها القاضى ؟ ...

القاضى : نعم .

السلطان : لديك حل إذن لمشكلتنا هذه ؟ ...

القاضى « بنفس النبرة » : نعم ! ...

السلطان : إذن ... تكلم ! ... ما هو الحل ؟ ...

القاضى : لا يوجد غير حل واحد ...

السلطان : قل ! ... ما هو ؟ ...

القاضى : تطبيق القانون .

السلطان : أيضاً ؟ ! ... مرة أخرى ؟ ! ...

القاضى : نعم ... مرة أخرى ... ودائماً ... إذ لست أرى حلا آخر غير هذا .

السلطان : أسمعت أيها الوزير ؟ ... هل يخامرك بعد ذلك أمل فى التعاون مع هذا الشيخ الخرف العنيد ؟ ! ...

الوزير : اسمح لى يا مولاى أن أستجوبه قليلا ! ...

السلطان : افعل ما شئت ! …

الوزير : يا قاضى القضاة ! … المسألة دقيقة ، وتحتاج منك إلى أن تشرح لنا بتفصيل ووضوح وجهة نظرك …

القاضى : وجهة نظرى واضحة بسيطة ، أشرحها فى كلمتين : لحل هذه المسألة أمامنا طريقان : طريق السيف ، وطريق القانون ، أما السيف فلا شأن لى به ، وأما القانون فهو ماينبغى لى وما أستطيع أن أفتى فيه . والقانون يقول : إن العبد الرقيق لا يملك عتقه غير مولاه ، مالك رقبته . وفى حالتنا هذه المولى مالك الرقبة توفى بغير وريث ، فآلت ملكية العبد إلى بيت المال ، وبيت المال لا يملك عتقه بغير مقابل ؛ إذ ليس من حق أحد التصرف بغير مقابل فى مال أو متاع مملوك للدولة . ولكن من الجائز لبيت المال التصرف بالبيع ، وبيع مال الدولة لا يكون صحيحا قانونا إلا بمزاد مطروح فى العلن … فالحل الشرعى إذن هو أن نطرح مولانا

السلطان للبيع فى المزاد العلنى ، ومن رسا عليه المزاد يعتقه بعد ذلك ... بهذا لا يضار ولا يغبن بيت المال فى ملكه ، ويظفر السلطان عن طريق القانون بعتقه وتحريره ! ...

السلطان « للوزير » : سمعت هذا ؟ ! ...

الوزير « للقاضى » : نطرح مولانا السلطان العظيم للبيع فى المزاد العلنى ؟ ! ... إن هذا هو الجنون بعينه ! ...

القاضى : هذا هو الحل القانونى الشرعى ! ...

السلطان « للوزير » : لا تضيع وقتا ! ... لم يبق من رد على هذا الأحمق الوقح إلا الإطاحة برأسه ، ولتكن النتيجة ما تكون ! ... وأنا الذى سيفعل ذلك بيده ...

« يستل سيفه »

القاضى : إنه لشرف عظيم لى يا مولاى أن أموت بيدك ، وأن تذهب روحى فى سبيل الحق والمبدإ ! ! ...

الوزير : صبراً يا مولاى صبراً ! ... لا تصنع من هذا الرجل

شهيداً ! ... ما من ميتة أروع من هذه يتمناها مثل هذا الشيخ المهدم ! ... سوف يقال إنك حطمت القانون والشرع فيه ... وسوف يصبح هو الرمز الحى لروح الحق والمبدإ... ورب شهيد مجيد له من التأثير والنفوذ فى ضمير الشعوب ما ليس لملك جبار من الملوك ! ...

السلطان « يكظم » : لعنة الله...

الوزير : لا تنله هذا المجد يا مولاى على حساب الموقف ! ...

السلطان : وما العمل إذن ؟ ... إن هذا الرجل يضعنا فى مأزق، ويخيرنى بين أمرين ، كلاهما مر : القانون الذى يظهرنى ضعيفا ويصيرنى أضحوكة ، .أو السيف الذى يصمنى بالوحشية ويجعلنى بغيضا ! ...

الوزير « يتجه إلى القاضى » : يا قاضى القضاة ! ... كن لينا ميسراً ! ... ولا تكن صلبا معسراً ! ... قف معنا فى منتصف الطريق ، وأوجد لنا حلا وسطا ، واجهد معنا فى البحث عن مخرج معقول ! ...

القاضى : ما من مخرج معقول سوى القانون ...

الوزير : نطرح السلطان للبيع فى المزاد ؟! ...

القاضى : نعم ! ...

الوزير : والذى يرسو عليه المزاد ويشتريه ؟ ...

القاضى : يعتقه فى الحال ... فى مجلس العقد ... هذا هو الشرط ؟! ...

الوزير : ومن ذا الذى يقبل أن يخسر ماله على هذا النحو ؟ !...

القاضى : كثيرون ... أولئك الذين يفتدون حرية السلطان بأموالهم ! ...

الوزير : إذن ... لماذا لا نقوم نحن بأداء هذا الواجب ... أنا وأنت ... ونفتدى سلطاننا بأموالنا الخاصة سراً ... ونفوز نحن بهذا الشرف ؟ ! ... أليست فكرة صائبة ؟ !...

القاضى : كلا مع الأسف ... سراً لا يجوز ... القانون صريح .. إنه ينص على أن كل بيع لأملاك بيت المال

يجب أن يتم علنا ، وفى مزاد عام ! ...

السلطان «للوزير» : لا تتعب نفسك معه ! ... إنه مصر على فضيحتنـا ! ...

الوزير «للقاضى» : وأخيرا يا قاضى القضاة ؟ ... أما من حيلة تخرجنا من هذه الورطة ! ...

القـاضى : حيلة ؟ ! ... لست أنا الذى يطلب إليه البحث عن الحيـــل ؟ ! ...

السلطان : بالطبـع ! ... هذا الرجل لا يبحث إلا عما فيه تحدينا وإذ لا لنــا ! ...

القاضى : لست أنا بشخصى يا مولاى ! ... إن شخصى الضعيف لا شأن له فى الأمر كله ! ... ولو كان الأمر بيدى ومتعلقا برغبتى لما كان أحب إلى من أن أخرجكم من هذا الموقف على خير ما تشتهون ! ...

السلطان : ياللضعيف المسكين ! ... الأمر ليس بيده ... بيد من إذن ؟ ...

القاضى : القانون .

السلطان : نعم هذا الشبح الذى تختفى وراءه لتخضعنى ، وتفرض على إرادتك ، وتظهرنى أمام الناس فى هذا المظهر المضحك الواهن المهين ! ...

القاضى : بل لتظهر بمظهر الحاكم المجيد ! ...

السلطان : أترى من علامات المجد أن يعامل سلطان معاملة السلعة والمتاع ، ويباع فى الأسواق ؟ ! ...

القاضى : إنها لمن علامات المجد فعلا يامولاى أن يخضع سلطان للقانون كما يخضع له بقية الناس .

الوزير : إنه لجميل حقاً يا قاضى القضاه أن يطيع الحاكم القانون كما يطيعه المحكوم . ولكن فى هذا مجازفة كبرى . إن سياسة الحكم لها أساليبها ، وحكم الناس يتطلب وسائل أخرى .

القاضى : إنى لا أفقه شيئاً فى السياسة ، ولا فى مهنة حكم الناس ! ...

السلطان : إنها مهنتنا نحن . دعنا إذن نمارسها بوسائلنا الخاصة ! ...

القاضى : إنى لم أغل يديك يامولاى ... إن لك مطلق الحرية فى أن تمارس حكمك كما تشاء ! ...

السلطان : حسن ! ... إنى أرى الآن مايجب علىّ فعله ! ...

الوزير : ماذا أنت صانع يا مولاى ؟ ...

السلطان : انظر إلى هذا الشيخ ! ... أتراه يحمل سيفاً فى منطقته ؟! ... كلا بالطبع ... إنه لا يحمل غير لسان فى فمه يديره بكلمات وعبارات ، وإنه ليحسن استخدام مايملك بحذق وبراعة ، ولكنى أنا أحمل هذا ! ... « يشير إلى سيفه » وهو ليس من خشب ، ولا هو لعبة من اللعب ! ... إنه سيف حقيق ، وينبغى أن يصلح لشىء ، ويجب أن يكون لوجوده سبب. أتفهمون كلامى ؟ ! ... أجيبوا ! ... لماذا قدر لى أن أحمل هذا ؟ ! ... أللزينة أم للعمل ؟ ! ...

الوزير : للعمل !...

السلطان : وأنت أيها القاضي ... لماذا لا تجيب؟ ... أجب ! ...
أهو للزينة أم للعمل ؟ ! ...

القاضي : لأحدهما .

السلطان : ماذا تقول ؟ ...

القاضي : أقول لهذا أو لذاك ! ...

السلطان : ماذا تعني ؟ ...

القاضي : أعني أن لك الخيار يامولاي السلطان . لك أن تجعله للعمل ، ولك أن تجعله للزينة ... إني معترف بما للسيف من قوة أكيدة ، ومن فعل سريع وأثر حاسم . ولكن السيف يعطي الحق للأقوى ، ومن يدري غداً من يكون الأقوى ؟ ... فقد يبرز من الأقوياء من ترجح كفته عليك ! ... أما القانون فهو يحمي حقوقك من كل عدوان ؛ لأنه لا يعترف بالأقوى ... إنه يعترف بالأحق !... والآن ، فما عليك يامولاي سوى الاختيار :

بين السيف الذى يفرضك ولكنه يعرّضك ، وبين القانون الذى يتحداك ولكنه يحميك ! ...

السلطان « مفكرا لحظة » : السيف الذى يفرضنى ويعرضنى ، والقانون الذى يتحدانى ويحمينى ! ؟ ! ...

القاضى : نعم .

السلطان : ما هذا الكلام ؟ ! .

القاضى : الحقيقة الصريحة .

السلطان « يفكر مردداً » : السيف الذى يفرض ويعرض ؟ ! ... والقانون الذى يتحدى ويحمى ! ؟ ! .

القاضى : نعم يا مولاى ! ...

السلطان « للوزير » : يا لهذا الشيخ اللعين ! ... إن له عبقرية نادرة فى أن يوقعنا دائماً فى الحيرة ! ...

القاضى : إنى ما صنعت يا مولاى غير أن طرحت عليك وجهى المسألة ، وعليك أنت الاختيار ! ...

السلطان : الاختيار ؟ ! ... الاختيـــار ؟ ! ... ما رأيك

أنت يا وزير ؟! ...

الوزير : أنت الذى يبت فى هذا يامولاى ! ...

السلطان : إنك لا تعرف أنت أيضا ، فيما أرى ؟! ...

الوزير : فى الواقع يا مولاى ، إن ...

السلطان : إن الاختيار صعب ؟! ...

الوزير : حقـــاً ...

السلطان : السيف الذى يفرضنى على الجميع، ولـكنه يعرضنى للخطر . أوالقانون الذى يتحدى رغباتى ولـكنه يحمى حقوقى ! ...

الوزير : نعم ...

السلطان : اختر لى أنت ! ...

الوزير : أنا ؟! ... لا ... لا ... يامولاى ! ...

السلطان : مم تخاف ؟ ...

الوزير : من العواقب ... عواقب هذا الاختيار ... إذا اتضح يوماً أنى اخترت الطريق الخطأ ! ... ويالها يومئذ

من كارثة ! ...

السلطان : لا تريد تحمل التبعة ؟ ! ...

الوزير : لست أجرؤ ... وليس من حقى ! ...

السلطان : لابد من البت فى النهاية ...

الوزير : ما من أحد غيرك يا مولاى يملك حق البت فى مثل هذا الأمر ...

السلطان : حقا ... مامن أحد غيرى ! ... ولن أستطيع التهرب من ذلك . أنا الذى يجب عليه أن يختار ، ويتحمل تبعة الاختيـــار ! ...

الوزير : أنت مولانا وحاكمنا ! ...

السلطان : نعم ، وتلك ساعتى المخيفة ! ... الساعة المخيفة لـــكل حاكم ! ... ساعة يصدر القرار الأخير ، القرار الذى يغير مجـرى الأمور ! ... ساعـة ينطق بذلك اللفظ الصغير ، الذى يبت فى الاختيار الحاسم ! ... الاختيار الذى يقرر المصير ! ...

« يفكر مليا ، وهو يقطع المكان
جيئة وذهاباً ، والكل ينتظر نطقه ... والصمت
يخيم لحظة . . . . »

السلطان « وهو مطرق فى تفكيره » : السيف أم القانون ؟ ! ...
القانون أم السيف ؟ ! ...

الوزير : إنى مقدر يا مولاى دقة موقفك ! ...

السلطان : ولا تريد مع ذلك أن تعينى برأى ؟ ! ...

الوزير : لا أستطيع ... أنت فى هذا الموقف صاحب الرأى
وحـــدك ! ...

السلطان : لا مفر إذن من أن أقرر بنفسى ! ...

الوزير : هو ذاك .

السلطان : السيف أم القانون ؟ ! ... القانون أم السيف ؟ ! ...
« يفكر لحظة ، ثم يرفع رأسه بقوة » حسن . . .
لقد قررت ...

الوزير : أوامرك يا مولاى ! ...

السلطان : قررت أن أختار ... أن أختار ...

الوزير : ماذا يا مولاى ؟ ...

السلطان « صائحاً فى عزم » : القانون ! ... اخترت القانون ! ...

ستـــار

الفصل الثاني

« عين الساحة . . . وقد أخذ الحراس
ينظمون صفوف الشعب حول منصة أقيمت فى
المكان . . . خان الخمار مغلق ، وقد وقف
يتحدث إلى الإسكاف المنهمك فى عمله ،
بباب حانوته المفتوح . . . . »

الخمـــار : عجبي لك أيها الإسكاف ! ... تفتح حانوتك وتعمل ، والحوانيت كلها اليوم مغلقة ؛ كما تغلق فى يوم العيـــد ! ...

الإسكاف : ولماذا أغلق أنا ؟ ! ... ألأنهم يبيعون السلطان ؟ ! ...

الخمـــار : يا أحمق ! ... لكى تشاهد أعجب فرجة فى الدنيا ! ...

الإسكاف : أستطيع أن أشاهد من هنا كل ما يجرى وأنا أعمل ...

الخمـــار : أنت حر . أما أنا فقد أغلقت حانى ، حتى لا تفوتنى أقل حركة من هذا المشهد العجيب ! ...

الإسكاف : غلطة كبرى منك يا صديق ! ... إن اليوم هو

الفرصة السانحة لاجتذاب الزبائن ... ليس فى كل الأيام تظفر بمثل هـــذه الجموع المحتشدة أمام حانك ! ... وما من شك فى أن كثيرين اليوم سيقتلهم العطش ، ويشتاقون إلى قطرة من شرابك ! ...

الخـــــار : أتظن ذلك ؟ ! ...

الإسكاف : هذا شئ بديهى ! ... انظر ! ... هأنذا مثلا قد عرضت اليوم أفخر نعالى ! ... « يشير إلى نعاله التى علقها بباب حانوته »

الخـــــار : ياعزيزى الإسكاف ، إن من جاء اليوم للشراء إنما جاء ليشترى السلطان ، لا ليشترى نعالك ؟ ! ...

الإسكاف : ولم لا ؟ ... قد يوجد بين الناس من هم أحوج إلى شراء نعالى ! ...

الخـــــار : اسكت ولا تزد ! ... يبدو أنك لا ترى ما يبهر فى هذا الحدث ، ولا تدرك أنه حدث فريد ! ... أترى

فى كل يوم يعرض سلطان للبيع ! ...

الإسكاف : اسمع ياصديقى ! ... وأقولها لك صراحة : لو أن معى من النقود ما يكفى لشراء السلطان فإنى والله ما أشتريه ! ...

الخمار : لا تشتريه ؟! ...

الإسكاف : أبداً ! ...

الخمار : اسمح لى أن أقول : إنك أحمق ! ...

الإسكاف : بل إنى عاقل فطن . قل لى أنت بربك ماذا تريد منى أن أصنع بسلطان فى حانوتى ؟! ... هل أستطيع أن أعلمه صنعتى هذه ؟! ... بالطبع لا ... هل أستطيع أن أكلفه عملا ما ؟! ... من المؤكد لا ... إذن ... أنا الذى سيعمل دائما ويضاعف عمله لأطعمه وأعوله وأخدمه ! ... هذا وربى ما سيحدث ! ... سأشترى عبئا على كاهلى ، ومتاعا من أمتعة الترف ، لا قبل لى بتحمله ... إن مواردى ياصاح لاتسمح

لى باقتناء التحف ! ...

الحمـــار : يا للبلاهة ! ...

الإسكاف : وأنت ؟ ! ... أكنت تشتريه ؟ ...

الحمـــار : وهل فى هذا شك ؟ ...

الإسكاف : ماذا تصنع به ؟ ! ...

الحمـــار : أشياء كثيرة ... كثيرة جدا ياصديقى ! ... إن مجرد وجوده فى حانى كفيل باجتذاب المدينة كلها ... يكفى أن أطلب إليه أن يقص على زبائنى كل ليلة أخبار معاركه ضـد المغول وطرائفه وأسفاره ومخاطراته ، وما رأى من بلاد ، وما دخل من ديار ، وما اجتاز من قفار ... أليس كل هذا مفيدا وممتعـا ؟ ! ...

الإسكاف : حقا... تستطيع أنت أن تستخدمه فى هذا ... أما أنا ...

الحمـــار : أنت أيضا تستطيع مثل ذلك ...

الإسكاف : كيف ؟ ! ... إنه لا يعرف شيئا فى رتق الأحذية ،

وصنع النعال حتى يتحدث عنها ...

الحمار : ليس من الضرورى أن يتحدث عندك ! ...

الإسكاف : ماذا يفعل إذن ؟ ...

الحمار : لو كنت فى مكانك فإنى أعرف كيف أستخدمه ...

الإسكاف : كيف ؟ ... أخبرنى ! ...

الحمار : أجلسه أمام باب الحانوت على مقعد مريح ، وألبسه حذائين جديدين ، وأضع فوق رأسه لوحة كتبت عليها هذه العبارة : « هنا تباع أحذية السلطان » وسوف ترى فى الغد أهل المدنية وقد تدفقوا على حانوتك يطلبون بضاعتك ! ...

الإسكاف : يالها من فكرة ؟ ! ...

الحمار : أليس كذلك ؟ ! ...

الإسكاف : عقلك بدأ يعجبنى ! ...

الحمار : ما تقول إذن ، لو فكرنا فى شرائه معا ، وجعلناه شركة بيننا ؟ ! ... أنا أتخلى لك عنه نهارا ، وأنت

تدعـــه لى ليلا ؟! …

الإسكاف : حـــلم جميل ! … لـكن جميع ما نملك من مال — أنا وأنت — لا يـكفى لشراء إصبع من أصابعـــه ! …

الخمـــار : حقـا ! …

الإسكاف : انظر ! … هاهى ذى جموع الناس أخذت تفد وتحتشـــد ! …

« الجموع من رجال ونساء وأطفال تتجمع »
وتلغط بالـكلام فيما بينها . . . . »

الرجل الأول « لرجل آخر » : أها هنا يبيعون السلطان ؟ ! …

الرجل الثانى : نعم … ألا ترى الحراس ؟ ! …

الرجل الأول : لو كان معى مال ؟ ! …

الرجل الثانى : صه ! … إن هذا للأغنياء ! …

طفـــل « لأمه » : أماه ! … أهذا هو السلطان ؟ ! …

الأم « لطفلها » : لا يابنى ! … هذا أحد الحراس ! …

الطفل : وأين هو السلطان إذن ؟ ! ..

الأم : لم يحضر بعد ! ...

الطفل : وهل للسلطان سيف ؟ ! ...

الأم : نعم سيف كبير ! ...

الطفل : وهم سيبيعونه هنا ؟ ! ...

الأم : نعم يابنى ! ...

الطفل : متى يا أماه ؟ ! ...

الأم : عما قليل .

الطفل : أماه ! ... اشتريه لى ! ..

الأم : ماذا ؟ ...

الطفل : السلطان ! ... اشترى لى السلطان ! ...

الأم : اسكت ! ... إنه ليس لعبة تلعب بها ! ...

الطفل : إنك قلت إنهم سيبيعونه هنا ... اشتريه لى إذن ! ...

الأم : يابنى اسكت ! ... هذا ليس لمثلك ؟ ! ...

الطفل : لمن إذن ؟ ... للكبار ؟ ! ...

الأم : نعم .. هذا للكبار ...

« تفتح النافذة بمنزل الغانية ، وتطل الخادم . . . . »

الخادمة « منادية » : يا خمار ! ... يا صاحب الحان ! ! ... أتغلق حانك اليوم ؟ ! ...

الخمار : نعم . أولم أحسن صنعا ؟ ! ... ومولاتك ؟ ... أين هي ؟ ... ألم تزل بعد فى فراشها ؟ ...

الخادمة : بل لقد خرجت من الحمام لتتزين ! ...

الخمار : لقد كانت بارعة ! ... ونفعت حيلتها مع الجلاد ! ...

الخادمة : صه ! ... إنه هناك ... أراه بين الجمع ... ها هو ذا قد لمحنـا ! ...

الجلاد « مقبلا على الخمار » : لعنة الله عليك وعلى خمرك ! ...

الخمار : لماذا ؟ ... أى ذنب جناه خمرى ليستحق لعنتك ؟ ! ... أليس هو الذى أدخل على نفسك السرور تلك الليلة ، وحمسك للغناء ، وجعلك ترى كل شيء من

حولك صافيا رائقا ! ...

الجلاد « فى نبرة غيظ » : صافيا رائقا ؟ ! ... حقا رأيت كل شىء تلك الليلة صافيا رائقا ؟ ! ...

الخمار : بالتأكيد ... أو تشك فى ذلك ...

الجلاد : اسكت ولا تذكرنى بتلك الليلة ...

الخمار : سكت ... قل لى : هل أنت اليوم فى عطلة ...

الجلاد : نعم ...

الخمار : وصاحبك المحكوم عليه ...

الجلاد : صدر العفو عنه ...

الخمار : وأنت بالطبع ... ما سألك أحد عن حكاية الفجر ... إياها !!!

الجلاد : لا ...

الخمار : كل شىء إذن قد انتهى على خير ...

الجلاد : نعم ، ولكنى لا أحب أن يستغفلنى أحد ، أو يلعب بعقلى ...

الخادمة : حتى وإن كان فى ذلك إنقاذ لرأس رجل ؟ ...

الجلاد : اخرسى يا لئيمة ... أنت وسيدتك ...

الخادمة : أتعود إلى سبابنا فى يوم كهذا ...

الخمار « للجلاد » : لا تعكر مزاجك ! . سأقدم إليك هذا المساء قدحا كبيرا من جيد الخمر ، دون مقابل ...

الجلاد : دون مقابل ؟ ! ...

الخمار : نعم . هدية منى ، فى نخب ...

الجلاد : فى نخب من ؟ ...

الخمار « يلمح المؤذن مقبلا » : فى نخب المؤذن الشجاع ! ...

الجلاد : هذا الكذاب الأشر ؟! ...

المؤذن : كذاب ؟ ... أنا ؟ ! ...

الجلاد : نعم ... تزعم أنى كنت نائما أغط تلك الساعة ؟ ! ...

المؤذن : وكنت مخمورا ! ...

الجلاد : أنا واثق كل الثقة أنى كنت متنبها يقظا ، ولم أنم لحظة تلك الساعة ! ...

المؤذن : ما دمت واثقا من ذلك كل الثقة ...

الجلاد : نعم . . . ما كنت قط نائما تلك الساعة ! . . .

المؤذن : حسن ! . . .

الجلاد : توافق على هذا ؟ . . .

المؤذن : نعم ! . . .

الجلاد : إذن أنت كنت تكذب ؟ . . .

المؤذن : لا . . .

الجلاد : كنت نائما أنا إذن ؟ . . .

المؤذن : نعم ! . . .

الجلاد : كيف تقول نعم ؟ ! . . .

المؤذن : لا ! . . .

الجلاد : اثبت على قول ! . . . أهو نعم أم لا ؟ ...

المؤذن : ماذا تريد أنت ! ...

الجلاد : أريد أن أعرف هل كنت نائما تلك الساعة أو أنى كنت مستيقظا ؟ ! . . .

المؤذن : وماذا يهمك ؟ . . . ما دام كل شيء قد مر بسلام . . .
صاحبك المحكوم عليه قد صدر العفو عنه ، وأنت
ما سألك أحد فى شيء . . . وأنا ما حدثنى أحد فى شأن
ذلك الفجر ! ... الأمر بالنسبة إلينا جميعا قد انتهى على
خير ما نرجو ، ففيم نبش الماضى ؟ . . .

الجلاد : نعم ، ولكن الأمر لم يزل يقلقنى منذ ذلك اليوم . إنى
لم أبصر بعد الموقف جليا واضحا ! ... أريد أن أعرف
هل كنت أنا حقا نائما تلك اللحظة ، وهل أذنت أنت
للفجر حقيقة دون أن أفطن ؟ ! ... يجب أن تفضى إلى
بواقع الأمر فى النهاية ... وأنت تعرف الحقيقة كلها
دون ريب ... أخبرنى عما حدث بالضبط تلك
اللحظة ؟ ! ... إنى كنت ثملا قليلا وقتئذ حقا ،
ولكن ...

المؤذن : مادام الأمر يشغل بالك إلى هذا الحد ، فلماذا أريحك
وأشفيك ؟ ! ... إنى أفضل تركك هكذا تشوى على

نار الشك و تتقلب ! ...

الجلاد : تقلبت فى نار جهنم أيها المؤذن الخسيس ! ...

المؤذن « صائحا » : انظر ! ... انظر ! ... موكب السلطان قد أقبـــل ! ...

« يظهر الموكب وعلى رأسه السلطان ، يتبعه قاضي القضـــاة والوزير والنخاس المحكوم عليه ، ويتجهون إلى المنصة ، حيث يجلسون السلطان على مقعد فى الوسـط ، يحف به الجميـع ويقوم إلى جانبه النخاس لبواجه النـــاس . . . . »

الخمـار « للجلاد » عجبا ! ... هذا صاحبك المحكوم عليه ... ماذا جاء به هناك ، إلى جوار السلطان ؟ ! ...

الجـلاد « ناظرا إليه » : حقا ... هو والله بعينه ! ...

المؤذن : لا شك أنه هو المكلف بإجراء البيع ، أليس نخاساً من كبار النخاسين ؟ ! ...

الخمـار : أرأيت أيها الجـــلاد ؟ ! ... لم تكن نجاته إذن

من يدك ســــدى ! ...

الجلاد : يا للعجب ! ... ها هو ذا يبيع نفس السلطان مرتين ... مرة في صغره ، ومرة الآن في كبره ! ...

المؤذن : صه ! ... إنه يتأهب للكلام ! ...

النخاس « مصفقا بكفيه » : السكوت أيها الناس ! ... أعلن إليكم أني بصفتي نخاسا ودلالا ، قد كلفت مباشرة هذا البيع في المزاد العلني ؛ لمصلحة بيت المال ، وإنه ليشرفني بادئ ذي بدء أن يفتتح قاضي القضاة هذا الإجراء بكلمة يوضح فيها شروط هذا البيع ... الكلمة الآن لقاضي قضاتنا الموقر ! ...

القاضي : أيها النـــاس ! ... إن البيع المطروح أمامكم ليس ككل بيع . إن له صفة خاصة ، وقد سبق أن أعلن ذلك إليكم . فهذا البيع يجب أن يقترن به عقد آخر ، هو عقد العتق ، بمعنى أن المشترى الذى يرسو عليه المزاد لا يجوز له الاحتفاظ بما اشترى .

إنما عليه إجراء العتق فى مجلس العقد ... أى مجلسنا هذا ، ولا حاجة بى أن أذكركم بنص القانون الذى يمنع موظفى الدولة ورجالها من الاشتراك فى بيع ما للدولة ... أما وقد قلت لكم هذا فإن الكلمة الآن للوزير كى يحدثكم عن الطابع القومى لهذا الإجراء .

الإسكاف « همسا للخمار » : أسمعت ؟ ! ... لا يجوز للمشترى الاحتفاظ بما اشترى ؟! ... معنى هذا الإلقاء بالنقود فى البحر ! ...

الخمار « عابسا » : سنرى الآن من المعتوه الذى سيتقدم ! ...

النخاس « صائحا » : سكوتا ! ... سكوتا ! ...

الوزير : أيها القوم الأعزاء ! ... إنكم تحضرون اليوم حدثا فذا ضخما ، من أخطر الأحداث فى تاريخنا : سلطان مجيد يطلب حريته ، فيلجأ إلى شعبه بدلا

من أن يلجأ إلى سيفه ، هذا السيف البتار الجبار الذى انتصر به فى معارك المغول ، كان يستطيع أن ينتصر به أيضا فى نيل حريته وتحرير رقبته . ولكن سلطاننا المظفر العادل قد اختار أن يخضع للقانون ، كما يخضع له أضعف فرد فى رعيته . وها هو ذا يلتمس حريته بالطريق الذى نص عليه القانون . فمن شاء منكم أن يفتدى حرية سلطانه المحبوب فليتقدم إلى هذا المزاد ، ومن دفع منكم أغلى ثمن فقد عمل عملا صالحا للوطن ، سيذكر له على مدى الأيام ومر الزمن ! ...

« هتاف من الشعب . . . . . . »

صوت « يرتفع من بين الشعب » : فليحى السلطان ! ...

صوت آخر : فليحى القانون ! ...

النخاس : السكوت أيها الناس ! ...

الوزير « مستأنفا » : والآن وقد علمتم أيها القوم

الأعزاء ما تنتظره منكم بلادكم من تضحية قليلة
وفداء يسير ، فى سبيل هذا الهدف السامى النبيل :
وهو تحرير سلطانكم بأموالكم ، وذهاب هذه
الأموال إلى بيت المال؛ ليصرف منه على الفقراء
والمعوزين ... الآن وقد جاء إليكم سلطانكم
المحبوب المفدى لتتنافسوا فى تقديره وتحريره ، فإنى
أعلن بدء الإجراءات ...

« يشير إلى النخاس بالشروع فى العمل ، ،
بينما تهتف الجماهير . . . . »

النخاس : سكوتاً !... سكوتاً !... يا أهل هذه المدينة !...
لقد فتح المزاد ... ولن ألجأ إلى تلك الأوصاف
والنعوت التى يلجأ إليها عادة فى الأسواق للتحلية
والترغيب ، فموضوع هـــذا البيع هو فوق كل
وصف ونعت وتعليق . ولا مبالغة ولا إغراق
إذا قيل إنه يساوى وزنه ذهبا . إلا أن المقصود

ليس التعسير ولا الإعجاز ، إنما التيسير عليكم
بتقدير ماهو فى الإمكان . لذلك أبدأ المزاد بمبلغ
صغير ضئيل بالنسبة إلى سلطان : عشرة آلاف
دينـــار ! ...

« لغط بين الجماهير . . . . . . »

الإسكاف : « للخمار » عشرة آلاف ؟! ... فقط ؟ ! ...
يالثمن البخس ! ... انظر إلى هذه الياقوتة الكبيرة
فى عمامته ! ... إنها وحدها والله تساوى مائة ألف
دينـــار ! ...

الخمار : حقاً إنه لمبلغ تافه ! ... خاصة وهو يدفع فى سبيل
هدف وطنى نبيل ! ... عشرة آلاف دينار ؟ ! ...
إن هـــذا لا يليق ! ... إنى مواطن مخلص
ولا يرضينى هذا ... « يصيح » أحد عشر ألف
دينـــار ! ...

النخاس : أحد عشر ألف دينار ! ... أحد عشر ؟ ! ...

الإسكاف «للخمار» : أحد عشر ألف دينار فقط ؟ ! ...
أهذا كل ما عندك ؟ ! ... إذن فأنا أقول . . .
« يصيح » اثنا عشر ألف دينار ! . . .

النخاس : اثنا عشر ألف دينار ! . . . اثنا عشر . . .

الخمار « للإسكاف » : أتزايد أنت عليّ أنا ؟ ! . . .
إذن فأنا أقول . . . ثلاثة عشر ألف دينار . . .

النخاس : ثلاثة عشر ألف دينار . . . ثلاثة عشر . . .

«رجل مجهول يتقدم فجأة وهو يشق طريقا
بين الجموع . . . . »

المجهول « صائحا » : خمسة عشر ألف دينار ! ...

الإسكاف : ياللهول ! ... من يكون هذا الرجل ؟ ! . . .

الخمار : شخص ماجن من طرازك ولاشك ! ...

الإسكاف : ومن طرازك أنت أيضاً ! . . .

النخاس : خمسة عشر ألف دينار . . . خمسة عشر . . .
خمسة عشر . . .

الإسكاف « صائحا » : ستة عشر ألف دينار ! . . .

النخاس « صائحا » : ستة عشر ألف دينار . . . ستة عشر ...

المجهول : ثمانية عشر ألف دينار ! ...

الإسكاف « للخمار » : دفعة واحدة ! . . . إن هذا الرجل قد بالغ وأسرف ! . . .

النخاس : ثمانية عشر ألف دينار ... ثمانية عشر ...

الخمار : « يمعن النظر إلى المجهول » : يخيل إلى أنى رأيت هذا الرجل فى مكان ما ! . . . نعم . . . إنه هو . . . أحد الموسرين . . . يختلف إلى حانى من حين إلى حين ويشرب قدحا قبل أن يصعد إلى تلك الغانية ! ...

الاسكاف « ملتفتا إلى نافذتها » : انظر ! . . . ها هى ذى فى نافذتها ! . . . تبرق فى أتم زينة وبهرج ؛ كأنها عروس من الحلوى ! . . . « يصيح بها » أنت

أيتها المليحة فى عليائك ! ... ألست مواطنة مخلصة
أنت الأخرى !؟ . . .

الغانية : اخرس أيها الإسكاف ! . . . إنى لست ممن يهزل
فى مثل هذا الظرف ! . . . والله إن لم تكف
لأبلغن عنك ، وعندئذ توضع فى الحبس ! ...

النخاس « مرددا » : ثمانية عشر ألف دينار . . . بمبلغ
ثمانية عشر . . .

« أحد الأعيان يتقدم إلى المنصة . »

العين « صائحا » : تسعة عشر ألف دينار ! ...

المجهول « مزايداً » : على بعشرين ألف دينار ! ...

النخاس : عشرين ألف دينار ... عشرين ألف دينار ! ...
عشرين ! ...

العين : على بواحد وعشرين ألف دينار ! ...

المجهول : باثنين وعشرين ألف دينار ! ...

« عين ثان من الأعيان يتقدم . . »

العين الثانى : بثلاثة وعشرين ألف دينار !...

النخـــاس : بثلاثة وعشرين ... بثلاثة وعشرين ...

المجهـــول : خمسة وعشرين ! ...

النخـــاس : خمسة وعشرين ألف دينار ... خمسة وعشرين !...

« عين ثالث من الأعيان يتقدم . . »

العين الثالث : ستة وعشرين! ...

النخاس « صائحا » : ستة وعشرين ألف دينـار ! ...

ستة وعشرين ! ...

المجهـــول : ثمانية وعشرين ! ...

النخـــاس « يصيح » : ثمانية وعشرين ... ثمـانية وعشرين

ألف دينار ! ...

العين الثالث : تسعة وعشرين ...

الإسكاف « هامسا للخمار » : أجادون هم فى كل هــــذا ؟ ...

هـــؤلاء ؟! ...

الخمـــار : الظـاهر ...

النخاس : تسعة وعشرين ... تسعة وعشرين ألف دينار ! ...
تسعة وعشرين ! ...

المجهول « صائحا » : ثلاثين ! ... على بثلاثين ألف دينار ! ...

النخاس : ثلاثين ! ... بمبلغ ثلاثين! ... ثلاثين ألف دينار! ...

الإسكاف « هامسا » : ثلاثين ألف دينار يلقى بها فى البحر ! ...
يا للجنون ! ...

النخاس « صائحا بأعلى صوته » : ثلاثين ألف دينار ! ... ثلاثين ...
أما من مزايد ؟ ... لا أحد ؟ ! ... لا أحد يزايد على
ثلاثين ألف دينار ؟ ! ... أهذا هو كل ما يعرض ثمنا
لسلطاننا العظيم ؟ ! ...

السلطان « للوزير » : هذا هو الحد الأقصى للتقدير الوطنى
النبيل ! ...

الوزير : يا مولاى ! ... إن الحاضرين هنا للمزايدة هم فى
الأغلب من بخلاء التجار والموسرين ، ممن ركبت فيهم
طبيعة الشح ، والرغبة فى الربح ، والضن بالمال فى سبيل

هـــدف أسمى ! ...

النخاس « صائحا » : ثلاثين ألف دينار ! ... مرة أخرى أقول : من يزايد ؟ ... من يزايد ؟ ... لا أحد ؟ ... لا ؟ ... لا ؟ ... « النخاس يتبادل النظرات مع الوزير ثم يعلن » سأكررها ثلاثا : واحد ... اثنان ... ثلاثة ! ... انتهى ! ... رسا المزاد على ثلاثين ألف دينار ! ...

« هتاف من الجماهير . . . . . . »

الخمار « للاسكاف » : إنه زبونى الذى رسا عليه المزاد ! ...

النخاس : تقدم أيها الفائز !... وتقبل التهنئة على حظك السعيد !...

« الجماهير تهتف له . . . . . . »

الوزير : أهنئك أيها المواطن الصالح وأحييك ... « هتاف من الجماهير »

النخاس « صائحا » : السكوت ! ... السكوت ! ...

الوزير « مستطردا » . أحييك أيها المواطن الصالح باسم الوطن ، وباسم هذا الشعب المخلص الأمين الذى نبعت منه ، لتشترى وتفتدى حرية سلطاننا المعظم ! ... إن عملك

النبيل هذا سوف ينقش أبد الدهر على صفحات تاريخ
هذه الأمة الكريمة ! ...

« هتاف من الجماهير . . . . . . »

النخاس « صائحا » : سكوتا ! ... « يلتفت إلى المجهول » أيها المواطن
الصالح ... إن المبلغ معد ... أليس كذلك ؟ ! ...

المجهول : بدون شك ... إن أكياس الذهب على قاب
خطوتين ! ...

النخاس : حسن ... انتظر إذن ما يأمر به قاضى قضاتنا الموقر ! ...

القاضى « يعلن » : قضى فى المسألة ... ونفذ حكم القانون ...
وحلت المشكلة ... اقترب أيها المواطن الصالح ! ...
هل تستطيع التوقيع بإمضائك ؟ ! ...

المجهول : نعم يا مولانا القاضى ! ...

القاضى : وقع إذن على هذه الحجج ! ...

المجهول : سمعا وطاعة يا مولانا القاضى ! ...

القاضى « يقدم إليه وثيقة » : هنا ... وقع هنا ! ...

المجهول « يقرأ قبل أن يوقع » : ما هذا ؟ ... هذا ؟ ...

القاضى : هذا عقد البيع .

المجهول : نعم ... أوقع ... « يوقع بامضائه على الوثيقة »

القاضى : وهذه أيضا ... « يقدم إليه الوثيقة الثانية »

المجهول : هذه ؟ ... ما هذه ؟ ! ...

القاضى : هذه حجة العتق ! ...

المجهول « يتراجع خطوة » : إنى آسف ! ...

القاضى « وقد فوجئ » : ماذا تقول ؟ ! ...

المجهول : لا أستطيع التوقيع على هذه الحجة ...

القاضى : كيف ؟ ... ما هذا الذى تقول ؟ ! ...

المجهول : أقول إنه ليس فى يدى ...

القاضى : ليس فى يدك ماذا ؟ ...

المجهول : التوقيع على حجة العتق ...

القاضى «فى ذهول» : ليس فى يدك التوقيع ؟ ...

المجهول : لا ... ليس فى يدى ولا سلطتى ...

القاضى : ما معنى هذا ؟ ... ماذا تعنى بهذا ؟ ! ... أنت مجنون ولا ريب . إنه لواجب محتم عليك أن توقع حجة العتق ... هذا هو الشرط ... الشرط الأساسى لكل هذا الإجراء ...

المجهول : مع الأسف الشديد لست أملك هذا ... إن هذا فوق إمكانى، وخارج حدود صفتى ! ...

الوزير : ماذا يقول هذا الرجل ؟ ! ...

القاضى : لست أفهم ...

الوزير « للمجهول » : لماذا ترفض التوقيع على حجة العتق ؟! ...

المجهول : لأنه لم يؤذن لى فى ذلك ! ...

الوزير : لم يؤذن لك ؟ ...

المجهول : « مؤكداً برأسه » : لم يؤذن لى ، ولم أفوض إلا فى المزايدة وعقد الشراء ... أما خارج هذا النطاق فلا تفويض عندى ...

القاضى : تفويض ؟ ! ... تفويض ممن ؟ ! ...

المجهول : من الشخص الذى وكلنى عنه ...

القاضى : أنت وكيل عن شخص آخر ؟ ...

المجهول : نعم يا مولاى القاضى ! ...

القاضى : من هو هذا الشخص ؟ ! ...

المجهول : لا أستطيع الجواب ! ...

القاضى : بل يجب أن تجيب ...

المجهول : لا ... لاأستطيع ...

الوزير : أنت مرغم إرغاما على أن تذكر لنا الشخص الذى وكلك عنه فى التوقيع على عقد البيع ! ...

المجهول : لا أستطيع الإفضاء باسمه ! ...

الوزير : لماذا ؟ ...

المجهول : لأنى أقسمت قسما لا حنث فيه أن أحفظ اسمه سرا .

الوزير : ولماذا يحرص موكلك على أن يبقى اسمه سراً ؟ ...

المجهول : لا أدرى .

الوزير : إنه يملك مالا كثيرا بالطبع ، ما دام فى مقدوره إنفاق

مثل هذا المبلغ الجسيم دفعة واحدة ! ؟ ...

المجهول : هذه الثلاثون ألفا من الدنانير هى كل ما ادخر فى أحياته .

الوزير : وفوضك فى أن تضعها كلها فى هذا المزاد ؟ ...

المجهول : نعم ! ...

الوزير : إن هـــذا لهو الكرم بعينه ... بل هو عين النبل فى الشعور ... لكن ... لماذا يخفى اسمه ؟ ... أهو التواضع ؟ ... أهى الرغبة الأكيدة فى أن يبقى إحسانه مستورا ، وعمله الصالح مجهولا ؟ ...

المجهول : ربما ...

القاضى : فى هذه الحالة كان ينبغى أن يأذن لوكيله فى توقيع حجة العتق كذلك ...

المجهول : لا ... إنه لم يوكلنى عنه إلا فى عقد الشراء فقط ...

القاضى : هذا هو دليل سوء النية ...

الوزير : حقا ! ...

السلطان « فى نبرة سخرية » : يظهر أن المسألة قد تعقدت ! ...

القاضى : قليلا يا مولاى ! ...

الوزير : لابد لهذا الرجل من أن يتكلم ! ... وإلا فإنى سأرغمه على الكلام إرغاما ...

القاضى : مهلا أيها الوزير ... مهلا ... إنه سيتكلم من تلقاء نفسه، وسيجيب برفق عن أسئلتى ! ... اسمع أيها الرجل الطيب ! ... موكلك هذا ماذا يصنع ؟

المجهول : لا يصنع شيئا ...

القاضى : أليست له مهنة ؟ ...

المجهول : يزعمون ذلك ! ...

القاضى : يزعمون أن له مهنة ولكنه لا يصنع شيئا ...

المجهول : هو ذاك ! ...

القاضى : إنه إذن موظف ؟

المجهول : لا ! ...

القاضى : إنه غنى ؟ ...

المجهول : بعض الشئ .

القاضى : وأنت المتولى إدارة شئونه ؟ . . .

المجهول : تقريبا ! . . .

القاضى : أهو من الأعيان ؟ . . .

المجهول : خير من ذلك ! . . .

القاضى : كيف ذلك ؟ . . .

المجهول : الأعيان يزورونه ، ولكنه هو لا يعنى بزيارتهم ! . . .

القاضى : إنه وزير إذن ؟ . . .

المجهول : لا . . .

القاضى : أله نفوذ ؟ . . .

المجهول : نعم ... على معارفه ! . . .

القاضى : أله كثير من المعارف ! . . .

المجهول : نعم ! . . . كثير ! . . .

القاضى « يفكر فى صمت وهو يمشط لحيته بأصابعه » : نعم ... نعم . . .

السلطان : وأخيرا أيها القاضى ؟ ! . . . أوجدت حلا لهذه الألغاز ؟ ! . . . أم أننا سننفق وقتنا الآن فى ألعاب

الألغاز والأحاجى ؟! ...

الوزير « نافد الصبر » : يجب أن نلجأ إلى العنف يا مولانا السلطان ! ... ليس أمامنا إلا هـــذا ... إن ذلك الشخص المحجب بالأسرار ، الذى يخفى اسمه ويقتحم هذا المزاد على هذه الصورة ، لابد أنه يدبر فى رأسه أمرا مريبا وخطة خطرة ... بعـد إذنك يا مولاى ... سأتصرف فى الأمر ... « يصيح بالحراس » اذهبوا بهذا الرجل إلى التعذيب ، إلى أن يفضى إليـكم باسم موكله ومحرضه ! ...

المجهول « صارخا » : لا ... لا ... لا ... لا ترسـلونى إلى التعذيب ! ... بربكم ! ... لا تعذيب ... أتوسل إليكم ! ...

الوزير : تكلم إذن ! ...

المجهول : إنى أقسمت ...

الوزير « للحراس » : اذهبوا به ! ...

« الحراس يحيطون به . . . . . . »

المجهول «يصرخ» : لا ... لا ... لا ...

« يفتح باب دار الغانية ، وتظهر هي
وتتقدم إلى المنصة ، تتبعها خادمتها وجواريها
يحملن الأكياس . . . . »

الغانية : اتركوه !... اتركوه !... أنا موكلته ... وإليكم أكياس الذهب ... ثلاثون ألف دينار نقداً وعداً ! ...

« هرج ومرج بين الجماهير . . . . »

النخاس «صائحا» : سكوتا ! ... السكوت ! ...

الوزير : من هذه المرأة ؟ . . .

الجموع «صائحة» : العاهرة ... التي أمامنا ! ...

الوزير : عاهرة ! ...

الجموع : نعم ... عاهرة مشهورة فى الحى ! ...

السلطان : مرحى ! ... مرحى ! ... ختامه مسك ! ...

الوزير : أنت أيتها المرأة ! ... أنت التى ...

الغانية : نعم ... أنا التى فوضت هذا الرجل فى المزايدة لحسابها

« ملتفتة إلى الرجـــل المجهول » أليس كذلك؟ . . .

المجهول : هى الحقيقة يامولاتى . . .

الوزير : أنت ؟ ! ... تجرئين على شراء مولانا ! ...

الغـانية : ولم لا ؟ ... ألست مواطنة ومعى نقود ؟ ! ... فلم لا يـكون لى عين الحق الذى للآخرين ! ...

القاضى : نعم ... لك هذا الحق ... إن القانون يسرى على الجميع . على أنه يجب عليك أيضا أن تـكونى على عـلم بشروط هذا البيـع . . .

الغـانية : هذا طبيعى . إنى أعلم أنه بيع .

القاضى : بيع لهصفة خاصة .

الغـانية : بيع بالمزاد العلنى .

القاضى : نعم ...ولـكن . . .

الوزير : إنه قبل كل شىء عمل وطنى . وأنت مواطنة يهمك خير الوطن ، فيما أظن. . .

الغـانية : بدون شك ! . . .

الوزير : إذن وقعى هذه الحجة ! . . .

الغانية : ماذا جاء فى هذه الحجة ؟ ...

الوزير : العتق .

الغانية : ماذا يعنى هذا ؟ . . .

الوزير : ألا تعرفين ما هو معنى العتق ؟ ...

الغانية : أمعناه أن أتخلى عما فى يدى ! ...

الوزير : نعم ! ...

الغانية : أتخلى عن المتاع الذى اشتريته فى المزاد ! . . .

الوزير : هو ذاك ...

الغانية : لا ... لا أريد التخلى عنه .

السلطان : جميل ! . . .

الوزير : ستتخلين عنه أيتها المرأة ! ...

الغانية : لا . . .

الوزير : لا ترغمينى على أن أكون عنيفا . إنك تعلمين أنى أستطيع أن أرغمك . . .

الغـانية : بأية وسيلة ...

الوزير «مشيرا إلى سيفه» : بهذا ...

السلطان: تلجأ إلى السيف الآن ؟! ... لقد فات الأوان ! ...

الوزير : إنها يجب أن تذعن ! ...

الغـانية : إنى أذعن أيها الوزير ... أذعن للقانون ... أليس بمقتضى القانون أنى وقعت مع الدولة عقد بيع ؟... أهذا القانون محترم أم غير محترم ؟! ...

السلطان: أجب يا قاضى القضاة ! ...

القاضى : حقا أيتها المرأة ... لقد وقعت عقد بيع ، ولـكنه عقد مشروط ...

الغـانية : يعنى ! ...

القاضى : يعنى أنه بيع معلق على شرط ...

الغـانية : أى شرط ! ...

القاضى : العتق . وإلا فالبيع نفسه يصبح باطلا ! ...

الغـانية : تعنى أيهـــا القاضى أنه لـكى يصبح البيع صحيحا يجب

أن أوقع العتق ...

القاضى : نعم .

الغانية : وتعنى كذلك أنه يجب أن أوقع العتق حتى يصبح الشراء نافذا ! ...

القاضى : تماما ! ...

الغانية : لكن يامولاى القاضى ماهو الشراء ... أليس هو امتلاك شئ فى نظير ثمن ؟ ...

القاضى : هو هذا ...

الغانية : وما هو العتق ؟ ! ... أليس هو عكس الامتلاك ؟ ... إنه التخلى عن الامتلاك ؟ ...

القاضى : نعم ! ...

الغانية : إذن أيها القاضى أنت تجعل العتق شرطا للامتلاك . أى أنه لكى يكون امتلاك الشئ المبيع صحيحا يجب على المشترى أن يتخلى عن هذا الشئ .

القاضى : ماذا ؟ ... ماذا ؟ ...

الغانية : بعبارة أخرى : لكى تمتلك شيئا يجب أن تتخلى عنه ...

القاضى : كيف تقولين ؟ ... لكى تملك يجب أن تتخلى ...

الغانية : أو إذا شئت . لكى تملك يجب ألا تملك ...

القاضى : ما هذا الكلام ؟ ...

الغانية : هذاهو شرطك : لكى أشترى يجب أن أعتق... لكى أملك يجب ألا أملك ! ... أترى هذا معقولا ؟! ...

السلطان: معها حق ... لا عقل ولا منطق يقبل هذا ! ...

القاضى : من علمك ذلك أيتها المرأة ! ... ما من ريب فى أنه فقيه من فقهاء القانون ، قادر ماجن فاجر هو الذى لقنها هذا الذى تقول ...

السلطان: وماذا يهم ! ... هذا لن يغير من الأمر شيئا ... هذا هو قانونك أيها القاضى !... أرأيت !... مع القانون... هناك دائما حجة تقارع حجة وكلها لا تخلو من المعقول والمنطق ...

القاضى : ولكن هذه مغالطة ! ... هذه سفسطة ... إن ما تقوله

هذه المرأة ليس إلا سفسطة ! ...

السلطان: شرطك هو السفسطة ... فالبيع هو البيع ... هذا شيء بديهى ... أما الباقى فلا يلزم أحدا ...

القاضى : أجل يا مولاى . ولكن هذه المرأة قد تقدمت إلى المزاد ، وهى على بينة من طبيعته ، وتعلم تمـام العلم ما ينطوى عليه من معنى وهدف ، فتصرفها بعد ذلك على هذا النحو إن هو إلا خديعة وغش وتحايل ! ...

السلطان: إذا كنت تريد الآن أن تلقنها درسا فى الأخلاق ، فهذا شأنك . أما القانون فلم يعد له هنا محل ... وعليك أن تكف عن التحدث باسمه ...

القاضى : بل من واجبى يامولاى أن أحمى القانون من هـذه المخلوقات التى تعبث به وتهزأ ! ...

الغانية : أرجو منك أيها القاضى ألا تهينى ! ...

القاضى : وأنت أيتها المرأة ألا تستحين ... ألا تخجلين من تصرفك هـذا ؟ ! ...

الغـانية : أخجل وأستحى ؟ ! ... لماذا ؟ : ... لأنى اشتريت شيئا تبيعه الدولة ؟ ... لأنى رفضت أن ينهب منى ما اشتريت وأن أسلب ما دفعت فيه الثمن الغالى ؟ ... هاك أكياس الذهب ، عدوا مالكم واقبضوه ! ...

القاضى : إنى أرفض مالك ... وعليه فإنى أبطل هذا العقد .

الغـانية : لأى سبب تبطله ؟ ...

القاضى : لأنك امرأة سيئة السمعة رديئة السيرة ، ولعل هذا المال قد جاء من طريق الخطيئة ، فكيف يمكن قبوله فيما يدفع لبيت المال والدولة ؟ ...

الغـانية : إن مالى هذا قد قبل بالفعل فيما يدفع من ضرائب ومكوس ، فهل الضرائب والمكوس ليست مما يدفع لبيت المال والدولة ؟ ! ... إذا كان هذا رأيك أيها القاضى فإنى لن أدفع بعد اليوم ضريبة واحدة للدولة ...

السلطان : اقبل مالها أيها القاضى . إن هذا أبسط وأسلم ! ...

القاضى : إذن أنت تصرين على موقفك أيتها المرأة ؟ ! ...

الغانية : بدون شك ... إنى لست أمزح بهذه الأكياس من الذهب . إنى أدفع لأشترى، وأشترى لأملك ، والقانون يعطينى هذا الحق . البيع هو البيع . والملكية هى الملكية ... اقبضوا حقكم وسلمونى حقى ! ...

الوزير : كيف تريدين أن نسلمك سلطان البلد أيتها المرأة ؟ ...

الغانية : ولماذا إذن عرضتم سلطان البلد للبيع ؟ ...

السلطان: كلامها منطق ! ...هذه المرأة ! ...

الغانية : أنا أجيب ؛ لأن الجواب بسيط : عرضتموه للبيع كى يشتريه أحد من الناس . وهأنذى قد اشتريته ورسا على المزاد ! ... علنا أمام الجميع ... وها هو ذا الثمن المطلوب ... ولم يبق عليكم إلا تسليمى البضاعة المشتراة ! ...

السلطان: البضاعة ؟ ! ...

الغانية : نعم ، وإنى أطلب تسليمها فى المنزل ! ...

السلطان: أى منزل ؟ ...

الغانية : منزلى بالطبع ... هذا ... هذا المنزل المواجه ...

السلطان « للقاضى » : أتسمع ؟ ! . . .

القاضى : لم تعد هناك فائدة ولا نفع فى مناقشة امرأة من هذا الصنف ! ... إنى يا مولاى قد نفضت يدى ! ...

السلطان: ونعم الحل يا قاضى القضاة ! ... تغرسنى فى هذا الوحل، وتمضى أنت تنفض يدك ! ...

القاضى : إنى معترف بإخفاقى ... ما كنت أعلم أنى سأواجه مثل هذا الطراز من الناس ! ...

السلطان: وإذن ؟ ! ...

القاضى : عاقبنى يا مولاى ! ... إنى مستحق لأفظع العقاب ، على سوء نصحى وقصر نظرى! ... مر بقطع رأسى ! ...

السلطان: ومافائدة قطع رأسك ؟ ! ... إن رأسك وهو على كتفيك قد رمانى فى هذه الورطة ، فهل رأسك المقطوع هو الذى سيخرجنى منها ؟ ! ...

الوزير : دع الأمر لى يا مولاى ! ... الآن أرى جليا ما ينبغى

أن أفعل ... « يستل سيفه » ...

السلطان: لا ! ...

الوزير : لكن يا مولاى السلطان ...

السلطان: قلت لك لا ... اغمد سيفك ! ...

الوزير : أصغ إلى قليلا يا مولاى ! ...

السلطان: اغمد سيفك ... لقد قبلنا هذا الوضع فلنستمر ! ...

الوزير : يا مولاى ... مادام القاضى قد أخفق وأفلس ، فلنرجع إلى وسائلنا نحن ...

السلطان: لا ... لن أرجع إلى الوراء ! ...

الوزير : بالسيف كل شىء يتم فى يسر ، ويحل فى طرفة عين !...

السلطان: لا ... لقد اخترت القانون ، وسأمضى فى هذا الطريق ، مهما يصادفنى فيه من أوحال ...

الوزير : القانون ؟ ...

السلطان: نعم ، ولقد قلتها أنت منذ قليل ، ونطقت بألفاظ جميلة : إن السلطان اختار أن يخضع للقانون كما يخضع له أضعف

فرد فى رعيته . إن هذا القول الرائع يستحق أن يبذل
في تحقيقه كل الجهد ؟ . . .

الوزير : أو تظن يا مولاى أن أضعف فرد فى رعيتك يقبل
الوقوف هذا الموقف ؟ . . . هاهو ذا الشعب أمامنا ...
إذا أذنت لى فإنى أسأله وأحتكم إليه . . . أتأذن ؟ ...

السلطان : افعل وأرنى ! . . .

الوزير «مخاطبا الجوع» : أيها الناس ! . . . إنكم لترون كيف
تعامل هذه المرأة الوقحة سلطانكم المعظم ! . . . أأنتم
مقرون فعلها ؟ . . .

الشعب «صائحا» : لا . . .

الوزير : أأنتم راضون عن مسلكها المهين لحاكمنا المبجل ؟ ! . .

الشعب : لا ! . . .

الوزير : أترونها مستحقة للعقاب ؟! . . .

الشعب «يصيح» : نعم . . .

الوزير : ماهو الجزاء الخليق بها ؟ . . .

الشعب « صائحا » : الموت ! ...

الوزير « ملتفتا إلى السلطان » : أرأيت يامولاى ؟ ! ...
هاهو ذا الشعب قد نطق بالحكم ! ...

الغـــانية « متجهة إلى الشعب » : الموت لى ؟ ! ... لماذا أيها
الناس تحكمون على بالموت ؟ ! ... أى ذنب
جنيت ؟ ... هل الشراء إهانة وجريمة ؟ ... هل
أنا سارقة لهذا المال ؟ ! ... إنه مدخرى طول
حياتى ! ... هل أنا ناهبة خاطفة لهذا المعروض
للبيع ؟ ... إنى اشتريته بحر مالى فى مزاد على
أمام أعينكم ... ما هى جريمتى إذن ؟ ...
تكلموا ! ... بأى ذنب تطلبون سفك دماء
امرأة ضعيفة اشترت شيئا فى مزاد ؟ ! ...

أصـــوات « ترتفع من بين الجموع » : الموت للعاهرة ! ...

أصوات أخرى « من بين الجمع » : لا ... لا تقتلوها ! ...

السلطان « للوزير » : أترى ؟ ...

الوزير « للشعب » أيها الناس ! ... أترون أن ينفذ فيها الحكم ؟ ! ...

أصـــوات « تصيح » نعم ! ...

أصوات أخرى « صائحة » : لا ...

السلطان : انقسمت الآراء أيها الوزير ! ...

الوزير : لكن الأغلبية يا مولاى فى جانب الموت ! ...

السلطان : ليس هذا عندى بمبرر لقتل هذه المرأة . إنك تريد أن تلجأ إلى تبرير شبه قانونى لاستخدام السيف ! ...

الوزير : موت هذه المرأة ضرورى لإخراجنا من هذا المأزق ! ...

السلطان : الآن نحتاج إلى جثة هامدة لإنقاذنا ؟ ! ...

الوزير : نعم يامولاى ! ...

السلطان : بين الوحل والدم يتعين على مرة أخرى أن أختـــار ؟ ! ...

الوزير : لم يبق لنا غير السيف ليشق لنا مخرجا !...

السلطان: إن الذى يمضى قدما إلى الأمام فى خط مستقيم يجد دائما مخرجا...

الوزير : تقصد يامولاى ؟...

السلطان أقصد أنه لا نكوص على الأعقاب، ولا عودة إلى الوراء... أفهمت ؟ ...

الوزير : فهمت يامولاى ... إنك تريد أن تمضى فى اتباع القانون !...

السلطان: هو ذاك ... لن أحيد عما اخترت ، ولن أرجع فيما قررت !...

الوزير : وكيف نمضى فى اتباع القانون ، والقاضى نفسه يعلن إخفاقه وإفلاسه ...

السلطان: هو حر فى إعلان إفلاسه !... أما أنا فلا... لن أتقهقر... فلنسر فى الطريق إلى نهايته ...

الوزير : وهذه المرأة التى تسد علينا هذا الطريق ؟!...

السلطان: دع أمرها لى ... « يلتفت إلى المرأة » تعالَىْ هنــا أيتها المرأة ! ... اقتربى ! ... خطوة أخرى ... هنا أمامى ! ... أريد أن ألقى عليك بضعة أسئلة ! ... أتسمحين ؟ ...

الغانية : سمعا وطاعة يامولاى ! ...

السلطان: أولا ... وقبل كل شئ ... من أنا ؟ ...

الغانية : من أنت ؟ ! ..

السلطان: نعم ... من أكون ... أنا ؟ ...

الغانية : أنت السلطان ! ...

السلطان: أنت معترفة بأنى السلطان ؟ ...

الغانية : طبعا ! ...

السلطان: حسن ... والسلطان ما عمله ؟ ! ...

الغانية : عمله ... أن يحكم ! ...

السلطان: أنت موافقة على أنه يحكم ؟ ...

الغانية : بدون شك ! ...

السلطان : حسن جدا . إذن مادمت مقرة بكل هذا ، فكيف تطالبين بأن يسلم إليك السلطان ! ...

الغانية : لأنه أصبح من حقى ! ...

السلطان : لست أنا قش حقك . إنما أنا أتساءل فقط عن إمكان تنفيذ هذا الحق . مادمت سلطانا يحكم ، فكيف أستطيع القيام بمهام منصبى إذا سلمت إليك فى منزلك ؟ ! ...

الغانية : ليس أبسط ولا أسهل من ذلك . أنت سلطان أثناء النهار ... إذن فأنا أعيرك للدولة طول النهار ، فإذا جاء المساء عدت إلى منزلى ! ...

السلطان : للأسف أنت لا تفهمين عملى فهما صحيحا ... إن السلطان ليس صاحب حانوت يفتحه نهارا ويغلقه ليلا ... إنه رهن إشارة الدولة فى كل لحظة . وهنالك من المسائل الخطيرة العاجلة ما تضطره أحيانا كثيرة إلى الاجتماع برجال دولته فى منتصف الليل ...

الغانية : أمر هذا سهل أيضا . فى بيتى حجرة منعزلة هادئة

تستطيع العمل فيها مع رجال دولتك ! ...

السلطان : أترين هذا الوضع مقبولا ؟ ! ...

الغانية : أكثر من مقبول ... أراه مدهشا ! ...

السلطان : هو مدهش فعلا ... سلطان يصرف شئون دولة من بيت امرأة يقال: إنها ... لا تؤاخذيني! ... معذرة ! ...

الغانية : قل ! ... قل ! ... الكلمة لم تعد تجرحني ! ... لكثرة ما تلقيت من الوخزات ! تكسرت النصال على النصال ! ... على أنى أؤكد لك أيها السلطان أنك ستجد عندى من البهجة مالا تجد عندك ! ...

السلطان : ربما ... إلا أن الحاكم لن يحسن القيام بمهام الحكم من بيوت الآخرين .

الغانية : هذا إذا كان الحاكم حرا ...

السلطان : أصبت ... إنى لست حراً .... يطرق برأسه »

« لحظة صمت . . . . »

الغانية : ما يعجبنى فيك أيها السلطان هو موقفك المادىء

الرزين أمام هذه الكارثة ؟ ! ...

السلطان « يرفع رأسه نحوها » : أمعترفة أنت إذن أنها كارثة ؟ ! ..

الغانية : بديهى ! ... سلطان عظيم مثلك تساء معاملته على هذه الصورة ! ...

السلطان : وهل أحد غيرك يسىء معاملتى ؟ ! ...

الغانية : حقا ! ... وأى فخر وأى سرور أن أسمع هذا من فم سلطان عظيم ! ... إنه لشرف يستحق أن يدفع فيه ذهب الأرض كله ! ... ما من أحد يجسر بعد اليوم على ازدرائى فى المدينة ! ... فأنا أسىء معاملة السلاطين ! ...

الوزير « ثائراً » : كفى ! أيتها المرأة ! ... كفى ! ... إن هذا لفوق الاحتمال ! ... إنها قد جاوزت كل حد ! ... لابد من ضرب رأس هذه الشقية الوقحة ! ...

السلطان : اهدأ ! ...

الغانية : نعم ، اهدأ أيها الوزير! ... ولا تتدخل فيما لا يعنيك! ...

الوزير : أيمكن احتمال هذا كله ! ... اللهم صبرا ! .. اللهم
صبرا ! ...

الغانية : نعم ، تجمل بالصبر أيها الوزير ! ... ودعنا نتحدث
أنا والسلطان . فهذا موضوع يعنينا وحدنا ! ...

السلطان : هذا صحيح ! ...

الغانية : أين وقفنا يا مولاى السلطان ؟ ! ...

السلطان : لم أعد أدرى ... أنت التى كنت تتحدثين ...

الغانية : نعم ! ها أنذى أتذكر ... وقفنا عند قولى : إنه لشرف ...

السلطان : أن تسيئى معاملتى ! ...

الغانية : بل أن أحظى بمتعة الحديث معك ! ... فى الواقع
يا مولاى ، إنها المرة الأولى التى أراك فيها عن قرب .
لطالما حدثونى عنك ، لكنى ما كنت أعرف أنك
بهذا اللطف ! ...

السلطان : شكراً ! ...

الغانية : حقا لكأننا صديقان منذ عهد بعيد ! ...

السلطان : أومن عادتك أن تعرضى أصدقاءك هكذا للمهانة والسخرية ؟ ! ...

الغانية : لا ... مطلقا ! ... بالعكس ! ...

السلطان : إذن ، لماذا جعلت منى استثناء ؟ ...

الغانية : هذا بالفعل ما بدأ يؤلمنى . و لكم أتمنى الآن أن أدخل على قلبك السرور وأقدم إليك التجلة والاحترام ، لكن كيف ؟ ... كيف أستطيع ذلك ؟ ... ما هى الطريقة ؟ ...

السلطان : الطريقة بسيطة .

الغانية : توقيع حجة العتق هذه ؟ ! ...

السلطان : أظن ! ...

الغانية : لا ... لا أريد أن أتركك ... لا أريد أن أتخلى عنك . أنت مملوك لى . أنت لى . . لى ...

السلطان : لك ولغيرك من أبناء هذا الشعب كله ! ...

الغانية : إنى أريد أن تكون لى وحدى .

السلطان : وشعبي ؟ ...

الغانية : شعبك لم يدفع فيك ذهبا ليحصل عليك ! ...

السلطان : هذا صحيح . لكن يجب أن تعلمي أنه من المستحيل قطعا أن أكون لك وحدك ، وأبقى بعد ذلك سلطانا ! ... ليس هناك غير وضع واحد يستقيم معه أن أكون لك وحدك ! ...

الغانية : ما هو ؟ ...

السلطان : هو ألا أكون سلطانا ... أن أنزل عن العرش ، وأعتزل الحكم ...

الغانية : لا ... لست أريد لك ذلك ... أريد أن تبقى سلطانا ! ...

السلطان : في هذه الحالة لابد من التضحية ! ...

الغانية : من جهتي ؟ ! ...

السلطان : أو من جهتي أنا ...

الغانية : أتخلى عنك ! ...

السلطان : أو أتخلى أنا عن العرش ! . . .

الغانيـة : وعلى أنا أن أختار ! . . .

السلطان : بالطبع عليك أنت أن تختارى . . . لأن زمام الأمر كله فى يدك أنت الآن ! . . .

الغـانية : ألى كل هذه الأهمية ! . . . وكل هذا الخطر !؟ . . .

السلطان : فى هذه اللحظة ، نعم ! . . .

الغانيـة : هذا مدهش ! ...

السلطان : حقا ! ...

الغانيـة : أنا إذن أملك فى يدى زمام الأمر الآن ؟ . . .

السلطان : نعم ! ...

الغانيـة : بمشيئتى أبقى السلطان ! ...

السلطان : نعم ! ...

الغانية : وبكلمة منى يتم عزل السلطان ؟ ! ...

السلطان : نعم ! ...

الغانية : إن هذا حقا لمدهش ! ...

السلطان : بدون شك ! ...

الغانية : ومن الذى أعطانى كل هذه السلطة ؟ ... المال ؟ ...

السلطان : القانون .

الغانية : لفظ من فمى يستطيع أن يغير مصيرك ، ويوجه حياتك : إما إلى الرق والعبودية ، وإما إلى الحرية والسيادة ! ...

السلطان : وعليك أنت أن تختارى ! ...

الغانية « متفكرة » : بين العبودية التى تمنحك لى ، وبين الحرية التى تحفظك لعرشك وشعبك ! ...

السلطان : عليك أنت أن تختارى ! ...

الغانية : الخيار صعب ! ...

السلطان : أعرف ! ...

الغانية : إنه لمؤلم أن أتركك تذهب ... أن أفقدك إلى الأبد ! ... ولكنه مؤلم أيضا أن أراك تفقد عرشك ! ... لأن بلادنا لن يتاح لها أبدا سلطان فى مثل عدلك وشجاعتك ... لا ... لا تترك الحكم ، ولا تعتزل العرش ! ...

أريد أن تبقى سلطانا ...

السلطان : وإذن ؟ ...

الغانية : سأوقع الحجة ! ...

السلطان : حجة العتق ؟ ...

الغانية : نعم ! ...

القاضى « يبادر بتقديم الحجة » : هاهى ذى الحجة ...

الغانية : لى فقط طلب أخير ...

السلطان : ما هو ؟ ...

الغانية : أن تمنحنى يا مولاى هذه الليلة ... ليلة واحدة ...
شرفنى بقبول دعوتى ، وكن ضيفى حتى مطلع الفجر ! ...
فإذا أذن المؤذن لصلاة الفجر من فوق مئذنته هذه ،
فإنى أوقع حجة العتق ، ويصبح مولاى السلطان
حرا طليقا ! ...

القاضى : إذا أذن المؤذن لصلاة الفجر ! ...

الغانية : نعم . أهذا كثير ؟ ! ... أن أشترى بكل هذه الأكياس

من الذهب لا السلطان نفسه ، ولكن ليلة واحدة يمضيها في ضيافتي ؟! ...

السلطان : قبلت ! ...

الوزير : لكن يا مولاى ... من يضمن لنا هذا الوعد ؟ ... من مثل هذه المرأة ؟! ...

السلطان : أنا ... أنا الضامن ... إنى أثق بقولها .

القاضى : أتقسمين على ما تقولين أيتها المرأة ؟! ...

الغانية : نعم ... أقسم ... أقسم بالله العظيم ثلاثا ... إنى أوقع حجة العتق عند أذان المؤذن لصلاة الفجر من فوق هذه المئذنة ! ...

القاضى : اللهم فاشهد ! ... ونحن جميعا هنا شاهدون ! ...

السلطان : أما أنا فمصدقها دون قسم ! ...

الغانية : والآن ... يا مولاى السلطان النبيل ، أتأذن وتشرف بيتى المتواضع بزيارتك الكريمة ؟! ...

السلطان : بكل سرور ! ...

« ينهض السلطان ويتبع الغانية إلى دارها، موسيقى »

ستار

الفصل الثالث

« عين الساحة . . وقد ظهر منها جانب
المسجد بمئذنته ... كما ظهر جانب من منزل
الغانية ، يكشف عن جزء من الحجرة ذات
النافذة المطـلة على الساحة . . . والوقت
لـيـــل . . . . »

الوزير « فى الساحة يصيح فى الحراس » : ماذا تنتظر هنا كل هذه الجموع ، فى منتصف الليل ! ... اطردوا الناس ! ... وليذهب كل إلى بيته ... إلى فراشه ! ...

الحراس « يطردون الجماهير » : إلى دوركم ! ... إلى بيوتكم ! ...

الجمـــوع « مزمجرة » : لا ... لا ...

الإسكاف « صائحا » : أريد أن أبقى هنا ! ...

الخمـــار : وأنا أيضا لن أتزحزح من هنا ! ...

الوزير « للحراس » : ماذا يقولون ؟ ...

الحراس : يرفضون ! ...

الوزير « صائحا » : يرفضون ؟ ! ... ما هذا الهراء ؟ ! ... أرغموهم ! ...

الحراس « بقوة » : كل إلى داره ... كل إلى بيته ... اذهبوا ! ... اذهبو ! ...

الإسكاف : إنى هنا فى دارى ... وها هو ذا حانوتى ! ...

الخمار : أنا أيضا حانى هاهنا أمامكم ! ...

الحراس : ألا تطيعون الأوامر ! ... هلموا ! ... هلموا ! ...

« يدفعونهم »

الإسكاف : لا داعى إلى العنف ... أرجوكم ! ...

الخمار : لا تدفعونى بهذه الشدة ! ...

الوزير « للحراس » : أحضروا هذين المشاغبين ! ...

« الحراس يقبضون على الإسكاف والخمار ، ويحضرونهما بين يدى الوزير ... »

الإسكاف : لم أفعل والله شيئا يا مولاى الوزير ! ...

الوزير : لماذا تمتنع عن الذهاب إلى بيتك ؟ ...

الإسكاف : لست أريد الإيواء إلى فراشى ! ... بى رغبة قوية فى أن أبقى هنا يا مولاى الوزير ، كى أشاهد ؟! ...

الوزير : تشاهد ماذا ! ...

الإسكاف : أشاهد خروج مولانا السلطان من هذا البيت ...

الخمار : أنا أيضا يا مولاى الوزير ... دعنى أشاهد ذلك ...

الوزير : حقا إنها لجرأة ! ... لقد بلغت الجرأة اليوم بالجميع إلى حد القحة ! ... حتى أنت وزميلك ... تجسران أن تتكلما بهذه اللغة ! ...

الخمار : إنها ليست جرأة يا مولاى الوزير ، ولكنها التماس ! ...

الوزير : التماس ؟! ...

الإسكاف : نعم يا مولانا الوزير ... نلتمس أن تأذن لنا بالمشاهدة ...

الوزير : يا للصفاقة ! ... وما شأنكما بهذا الأمر ؟! ...

الإسكاف : ألسنا من المواطنين الصالحين ! ... إن مصير سلطاننا
لابد أن يهمنا ! ...

الوزير : هذا ليس سببا يبيح لكما عصيان الأوامر ! ...

الإسكاف : إننا لا نعصى ولكننا نتوسل ... كيف يغمض
لنا جفن الليلة ومصير مولانا السلطان فى الميزان؟ !...

الوزير : فى الميزان ؟ ! ...

الاسكاف : نعم يامولاى .. ميزان الأهواء المتقلبة ! ...

الوزير : ماذا تعنى ؟ ...

الاسكاف : أعنى أن المصير لا يبعث على الاطمئنان ...

الوزير : كيف أتاك علم هذا ؟ ! .

الاسكاف : مع امرأة كهذه لا يمكن الجزم بشىء ! ...

الخمار : لقد عقدنا رهانا بيننا . هو يقول : إن
هذه المرأة ستخلف وعدها ، وأنا أقول : إنها
ستفى بالوعد .

الوزير : شىء جميل احدث خطير كهذا الحدث تجعلان منه لعبة

من ألعاب الرهان ! ...

الخمار : لسنا وحدنا فى هـــذا يا مولانا الوزير ... كثيرون مثلنا الليلة بين هذه الجماهير يتراهنون ! ... حتى المؤذن والجلاد قد تراهنا ...

الوزير : الجلاد ؟ ! ... أين هو الجلاد ؟ ! ...

الخمار « مشيراً بيده » : هناك يا مولاى ! ... إنه يحاول الاختفاء بين الناس ...

الوزير « للحراس » : أحضروه ! ...

« الحراس يحضرون الجلاد إلى الوزير »

الجلاد « خائفا » : ليس الذنب ذنبي يا مـــولانا الوزير ! ... الغلطة غلطة المؤذن ... إنه هو المسئول ... هو الذى لم يؤذن للفجر ! ...

الوزير : الفجر ؟ ! . أى فجر ؟ ! . لسنا بعد فى صدد الفجر أيها الأحمق ! ... « الخمار والإسكاف يضحكان » تجسران على الضحك فى حضرتى ؟ ! ... اغربا عن وجهى ...

اغربا ! ... « الحمار والإسكاف ينطلقان هربا » والآن أيها الجلاد ؟ ! ... أمشغول أنت فى المراهنات ؟ ! ...

الجلاد : المراهنات ؟ ! ... من قال ذلك يامولاى ؟ ! ...

الوزير : أريد منك الجواب الصريح عن سؤالى ...

الجلاد : ولكنى يا مولاى ...

الوزير : لا تخف ! ... وأخبرنى ...

الجلاد : ولكن هذا الرهان يامولاى ...

الوزير : أعرف ... أعرف ، ولن أعاقبك ... أجبنى صراحة عن هذا السؤال : هل ستخلف هذه المرأة وعدها فى رأيك أو ستفى به؟ ! ...

الجلاد : ولكنى يا مولاى الوزير ؟ ! ...

الوزير : قلت لك لا تخف وأفصح عن رأيك دون حرج ! ... هذا أمر ... عليك طاعته ! ...

الجلاد : أمرك مطاع يا مولاى ... إنى فى الحقيقة لست أثق فى هذه المرأة ...

الوزير : لماذا ؟ ! . . .

الجلاد : لأنها كاذبة ... مخادعة ... محتالة . .

الوزير : أتعرفها ؟ ! ...

الجلاد : عرفت بعض حيلها ، عندما كنت هنا ذلك اليوم ، في انتظار الفجر لأنفذ حكم الإعدام في النخاس ...

الوزير : كاذبة ، مخادعة ، محتالة ؟ ! ...

الجلاد : نعم ! . . .

الوزير : وماذا تستحق امرأة كهذه ؟ ! . . .

الجلاد : العقاب بالطبع ! ...

الوزير : وماهو العقاب الذي تراه لها إذا كذبت وخدعت سلطاننا المعظم ؟ ! . . .

الجلاد : الإعدام بلا شك ! . . .

الوزير : حسن . كن إذن على أهبة الاستعداد لتنفيذ هذا الحكم عند الفجر ! ...

الجلاد « كالمخاطب نفسه » : الفجر ؟ ! ... أيضاً ؟ ! ...

الوزير : ماذا تقول ؟! . . .

الجلاد : أقول إنه عند الفجر سأكون مستعدا لتنفيذ أمر مولاى الوزير .

الوزير : نعم ... إذا أذن المؤذن لصلاة الفجر ، ولم يخرج سلطاننا من هذا المنزل حراً . .

الجلاد : فإنى أقطع رقبة هذه المرأة ! ...

الوزير : نعم ، عقاباً على جريمة ...

الجلاد : الكذب والخداع .

الوزير : لا ...

الجلاد « غير فاهم » : لا ؟ ! ...

الوزير « كالمخاطب لنفسه » : لا ... هذا لا يكفى ... تلك جريمة قد لا تستحق الاعدام . وهذه المرأة كفيلة أن تجد من العبارات الرنانة فى القانون والمنطق ما تبرر به فعلها ... لا ... يجب أن تكون هناك جريمة فظيعة خطيرة ، لا يمكن تبريرها ولا الدفاع عنها ... جريمة

تجلب السخط العام من الشعب كله ... فمثلا يمكن أن نقول
إنها ... جاسوسة ! ...

الجلاد : جاسوسة ؟ ! ...

الوزير : نعم ... تعمل لحساب المغول ! ... وعندئذ سينهض الشعب
بإجماعه ليطالب برأسها ! ...

الجلاد : نعم ، جزاء وفاقا ! ...

الوزير : أليس هذا رأيك ؟ ...

الجلاد : وسأرفع صوتى : الموت للخائنة ! ...

الوزير : صوتك وحده لن يكفى ! . . . يجب أن تكون هناك
أصوات أخرى غير صوتك ترتفع بهذا
الهتاف ! . . .

الجلاد : ستكون هنالك أصوات أخرى ...

الوزير : أتعرف أصحابها ؟ ! ...

الجلاد : ليس من الصعب إيجادهم ...

الوزير : نعم ... يجب إعداد الشهود ...

الجلاد : سهل كل هذا يا مولاى ! ...

الوزير : أظن مثل هذا التدبير يمكن أن ينجح ... إنى معتمد عليك إذا ساءت الأمور ...

الجلاد : إنى خادمك المخلص يا مولاى الوزير ! ...

« يضىء جزء من الحجرة فى منزل الغانية . »

الوزير : صه ! ... النور فى النافذة ! ... فلنبتعد قليلا ! ...

« تظلم الساحة ... بينما تضاء الحجرة ، ويظهر السلطان والغانية ويتجهان إلى مقعد وثير .... »

السلطان « وهو يجلس » : إن منزلك فاخر ! ... وربما شك ثمينة ! ...

الغانية « جالسة عند قدميه » : نعم ... لقد قلت لك الساعة يا مولاى ، إن زوجى كان من أثرياء التجار ، وكان له ذوق ، وكان له ولع بالشعر والغناء ! ...

السلطان : كنت من جواريه ؟ ! ...

الغانية : نعم . اشترانى ولى من العمر ستة عشر عاما ... ثم

أعتقنى وتزوجنى قبل موته ببضع سنوات ...

السلطان : إن حظك خير من حظى . فأنت لم ينس أحد أن يعتقك فى الوقت المناسب ! ...

الغانية : إن حظى السعيد حقا هو فى تشريفك بيتى هذه الليلة ! ...

السلطان : هأنذا فى بيتك ؟ ! ... ماذا تنوين أن تصنعى بى هذه الليلة ؟ ! ...

الغانية : لا شئ سوى أن أرفه عنك قليلا ...

السلطان : أهذا كل شيء ؟ ! ...

الغانية : ولا شئ غيره ... لقد سبق أن قلت لك : إن عندى من البهجة ماليس عندك ... لدى من الجوارى الحسان من حذقن الرقص والغناء والضرب على كل آلة من آلات الطرب ... ثق أنك لن تسأم ولن تمل هذه الليلة هنا ...

السلطان : حتى مطلع الفجر ؟ ...

الغانية : لا تفكر الآن فى الفجر ... إن الفجر لم يزل بعيدا ! ...

السلطان : سأفعل كل ما تطلبين حتى مطلع الفجر ! ...

الغانية : لن أطلب إليك شيئا غير الحديث وتناول الطعام والاستماع إلى الغناء ...

السلطان : لا شئ غير هذا ؟ ! ...

الغانية : وماذا تريد أن أطلب إليك أكثر من هذا ؟ ! ...

السلطان : لست أدرى ... أنت أعلم ! ...

الغانية : فلنبدأ إذن بالحديث ! ... حدثنى عن نفسك ! ...

السلطان : عن نفسى ؟ ! ...

الغانية : نعم ... عن قصتك ؟ ! ... احك لى قصتك ! ...

السلطان : تريدين منى أن أحكى لك قصصا ؟ ! ...

الغانية : نعم ... فى الحق إنه لابد أن تكون لديك ذخيرة من القصص الرائعة الممتعة ! ...

السلطان : أنا الآن الذى يحكى القصص ؟ ! ...

الغانية : ولم لا ؟ ! ...

السلطان : حقا ... هذا ما ينبغى ! ... ما دمت أنا فى وضع شهرزاد ! ... هى أيضا كان عليها أن تحكى القصص

الليل بطوله . فى انتظار الفجر الذى سيقرر مصيرها ! ...

الغانية « ضاحكة » : وأنا إذن شهريار الهائل المخيف؟ ! . . .

السلطان : نعم . . . أليس هذا عجيبا ؟ ! . . . كل شئ اليوم يسير مقلوبا معكوساً ! . . .

الغانية : لا . . . أنت السلطان دائما . . . أما أنا فهى التى فى وضع شهرزاد الجالسة دائما عند قدميك ! . . .

السلطان : شهرزاد القابضة على رقبة شهريارها القلق حتى يدركه الصباح ! . . .

الغانية : لا بل شهرزاد التى تدخل الانشراح فى صدر سلطانها ، والفرح والبهجة فى قلبه ... سترى الآن كيف أعالج قلقك وشكك ! ...

« تصفق . . . فاذا بموسيقى لطيفة قد تصاعدت من وراء الأستار . . . . »

السلطان « بعد أن أصغى » : عزف جميل ! ...

الغانية : وأنا بنفسى التى سترقص لك ! ...

« تنهض وترقص . . . . . . »

السلطان « بعد انتهاء رقصتها » : جميل ! ... كل هذا جميل ! ...
أو تصنعين هذا كل ليلة ؟ ! ...

الغانية : لا يا مولاى ! ... هذا استثناء ! ... لك أنت ... فأنا لم أرقص بنفسى منذ عتق وزواجى !... أما فى بقية الليالى فإن الجوارى يقمن بالرقص والغناء !...

السلطان : من أجل زبائنك ؟ ! ...

الغانية : بل قل ضيوفى ! ...

السلطان : كما تشائين ... ضيوفك ... لا بد أن ضيوفك هؤلاء يدفعون إليك فى كل هذا أجراً غالياً ... أدركت الآن لماذا أنت على هذا الثراء ! ...

الغانية : ثرائى ورثته عن زوجى !... وإنى لأنفق أحيانا على هذه الليالى أكثر مما أتقبل ! ! ...

السلطان : لماذا ؟ ... لوجه الله تعالى ؟ ! ...

الغانية : لوجه الفن ... إنى من هواته ...

السلطان « ساخراً » : الفن الرفيع دون شك ؟! ...

الغانية : أنت لا تصدق ! ... ولا تأخذ قولى على سبيل الجد ! ...
فليكن ! ... ظن بى السوء ما شئت ... ليس من عادتى
الدفاع عن نفسى ضد ظنون الآخرين ! ... إنى فى أعين
النـاس امرأة سيئـة السيرة . وقد انتهى بى الأمر إلى
قبول هذا الحكم . وقد وجدت فى ذلك الراحة لى . ولم
يعد من مصلحتى تصحيح رأى الناس ... عندما يجتاز إنسان
أقصى حدود السوء فإنه يصبح حراً ! ... وأنا فى حاجة
إلى حريتى ! ...

السلطان : أنت أيضاً ؟ ! .

الغانية : نعم ، لأفعل ما يحلو لى ...

السلطان : وما هو الذى يحلو لك ؟ ...

الغانية : صحبة الرجال ! ...

السلطان : مفهوم ! ...

الغانية : لا ... إنك قد فهمت خطأ ... الأمر ليس كما فهمت ...

السلطان : كيف هو إذن ؟ ! ...

الغانية : أتريد الباطل أم الحقيقة ؟ ..

السلطان : الحقيقة بالطبع .

الغانية : لن تصدق الحقيقة ... ما جدوى قولها إذن ؟! ...
إن حقيقة لا يصدقها الناس هى حقيقة لا نفع
فيها ..

السلطان : قوليها على كل حال ! ...

الغانية : سأقولها لمجرد تسليتك ! ... تحلو لى صحبة الرجال
من أجل أرواحهم لا من أجل أجسادهم ! ...
أفهمت ؟ ...

السلطان : لا ... لم أفهم جيداً ! ...

الغانية : سأفصح ... عند ما كنت جارية صغيرة فى عمر مَنْ عندى
الآن من الجوارى نشأنى سيدى على حب الشعر والغناء
والعزف ... وكان يجعلنى أحضر ولائمه وأحادث
ضيوفه ، وكانوا من الشعراء والمغنين ، كما كانوا من

أصحاب الظرف والروح والفكر ... وكنا نسهر
الليالى ننشد الشعر ونغنى ونطرب ونتجاذب الحديث ،
ونتراشق بالروائع واللوامع من فنون الكلام ،
ونضحك من أعماق قلوبنا ... كانت تلك الليالى رائعة
فاخرة ، كما كانت بريئة طاهرة ... وأرجو أن تصدق
ذلك ... فسيدى كان رجلاً فاضلا ، ولم تكن له من
متعة فى الحياة إلا هذه الليالى ... متعة بلا خطيئة
وبلا تبذل ... على هذا نشأنى وربانى ... فلما صرت
زوجته فيما بعد لم يرد أن يحرمنى متعة هذه الليالى
التى كانت تخلب لبى ، فسمح لى بالاستمرار فى
حضورها ، ولكن من خلف أستار من الحرير ... تلك
هى كل القصة ...

السلطان : وبعد وفاته ؟ ...

الغانية : بعد وفاته لم أستطع التخلى عن هذه العادة ، فأستأنفت
دعوتى لضيوف زوجى ... كنت أستقبلهم بادىء

الأمر وأنا محتجبة خلف أستار الحرير ... لكن عندما
أخذ أهل الحى فى اللغط حولى وإطلاق الشائعات عن
لمرآى الرجال الداخلين كل ليلة بيت امرأة لا بعل
لها ، لم أجد معنى للمضى فى الاحتجاب خلف
الأستار ... وقلت : ما دام حكم الناس قد أدانني ،
فلأجعل من نفسى قاضيا على تصرفاتى ! ...

السلطان : إنه حقا لعجيب أن يعلن ظاهرك كل هذا الإعلان
عما ليس فى باطنك ! ... واجهة حانوتك تعلن عن
بضاعة لا توجد فى الداخل ! ...

الغانية : لك أن تصدق أو لا تصدق ما قلت لك ! ...

السلطان : إنى أفضل أن أصدق ... هذا أدعى إلى اطمئنانى ! ...

الغانية : مهما يكن من أمر فأنا لا أعتزم مطلقا تغيير حياتى
ولا عاداتى ! ... إذا كان طريقى قد امتلأ بالوحل فإنى
ماضية فى خوضه والسير فيه ...

السلطان : الوحل !! ... إنه موجود فى كل طريق ...

ثق من ذلك ! ...

الغانيـة : لقد ذكرتنى الآن بما فعلته بك أمام الجماهير ! ...

السلطان : حقا ... لقد مرغتنى فيه ! ...

الغانيـة : كنت وقحة معك عن عمد ، ومتبذلة سليطة عن قصد ... أتدرى لماذا ؟ ... لأنى كنت أتخيلك فى صورة أخرى ! ... صورة سلطان متعجرف يزهو ويتبختر ويتعالى فى خيلاء جبروته ! ... كأغلب السلاطين ! ... بل لعلك أكثرهم غرورا وأشدهم غطرسة ، بسبب حروبك وانتصاراتك ... فالناس يتحدثون دائما عن تلك الياقوتة الخيالية التى تزين عمامتك ... تلك الياقوتة الفريدة فى الدنيا ، التى قيل : إنك انتزعتها بحد سيفك من رأس كبير المغول ! ... نعم ... أعمالك عجيبة وعظيمة ... لذلك كانت صورتك فى رأسى مرادفة للتكبر والتحجر والقسوة ... لكن ما إن حادثتنى بهذا اللطف وهذا التواضع حتى أصابنى شيء من الذهول والحيرة ! ...

السلطان : لا تغترى ! ... إنى لست دائما بهذا اللطف ، ولا بهذا التواضع ! ... هناك لحظات أكون فيها أشد قسوة ووحشية من أسوإ السلاطين ! ...

الغانيـة : لست أصدق هذا .

السلطان : لأنك واقعة تحت تأثير الظروف الحاضرة ! ...

الغانيـة : تقصد أنك لطيف معى أنا بصفة خاصة ؟ ! ... إن هذا ليملؤنى فخرا واعتزازا يامولاى العزيز ! ... لكن مهلا ! ... لعلى أسأت الفهم ... ما الذى يدعوك إلى هذا اللطف معى ؟ ... أهو شخصى ؟ ... أم القرار الذى تنتظره منى عند مطلع الفجر ؟ ! ...

السلطان : إنى أتكلف اللطف معك وأتصنعه لأستدر عطفك ! ... أليس كذلك ؟ ! ...

الغانيـة : وما إن تظفر بحريتك حتى تعود إلى طبعك الأصيل ، وتصبح السلطان القاسى الذى يسعى إلى الانتقام لساعات إذلاله ... وعندئذ تحين ساعة هلاكى ! ...

السلطان : من الحكمة إذن وبعد النظر أن تمسكيني دائما في قبضتك وملكك !...

الغانية : أليس كذلك ؟...

السلطان : هذا هو المنطق بعينه ، ما دامت قد داخلتك ريبة !...

الغانية : أو ليس لي الحق أن أرتاب ؟ !...

السلطان : لست ألومك إذا فعلت !... فأنا الذي ألقيت في نفسك ، بكل بساطة وبغير احتياط ، بذور الريب ، بما أقوله عن نفسي !...

الغانية « وهي تتأمله فاحصة » : لا...

السلطان : لا ؟... ماذا ؟ !...

الغانية : إني أفضل الاعتماد على غريزة المرأة في أعماقي !... إنها لا تخدعني أبدا !...

السلطان : وماذا تقول لك غريزة المرأة ؟ !...

الغانية : تقول لي إنك لست من ذلك الطراز من الرجال ... إنك مختلف... وكان ينبغي أن أدرك هذا منذ اللحظة

التى رأيتك فيها تتخلى عن استخدام سيفك! ...

السلطان : لو تعلمين كم كان يسهل الأمر لو أنى استخدمت سيفى ! ...

الغانيـة : أتندم على ذلك الآن ؟ ! ...

السلطان : إنما أتحدث عن السهولة ! ... لكن الانتصار الحق هو فى حل العقدة بلباقة الأصابع ...

الغـانية : وهذا ما أنت بسبيله الآن ؟ ! ...

السلطان : نعم . ولكنى لست واثقا من النتيجة ! ...

الغانيـة : هب أن النتيجة خيبت أملك ، ماذا أنت صانع ؟! ...

السلطان : لقد سبق أن قلت لك ...

الغانيـة : تنزل عن العرش ! ! ...

السلطان : نعم ! ...

الغانيـة : لا . . . لست أعتقد أنك فاعل هذا حقا ! ... إنى لست من البلاهة والغباء حتى أعتقد هذا أو آخذه مأخذ الجد ... وحتى لو أردت أنت أن تفعل ، فما من فرد واحد فى البلاد يقبل ، أو يدعك تقدم على هـــذا

الفعل ! .. إنك ستحمل حملا على قبول الحل السهل ، وستعود إلى استخدام الوسيلة البسيطة ! ...

السلطان : لم يحدث قط أنى رجعت خطوة إلى الوراء ... ولا حتى فى ميدان القتال ... أعترف أن هذا خطأ من الناحية الحربية . فهناك أحوال يتحتم فيها التقهقر . . . ولكنى ما فعلت هذا قط . . . لعل الحظ كان يحابينى . . . لقد اعتدت على كل حال هذه العادة السيئة ! . . .

الغانية : إنك مدهش ! ...

السلطان : بل الحقيقة أنى رجل عديم الخيال ! ...

الغانية : أنت ؟ ! ...

السلطان : الدليل هو أنى لو كنت أملك خيالا ، وتصورت ما ينتظرنى فى نهاية مثل هذا الطريق . . . لكنت صعقت ! ...

الغانية : ما من شيء يصعقك ... إن لك رباطة جأش ، وثقة بالنفس ، وتحكما فى أعمالك ، وقدرة على صنع ما تريد بدقة

وإحكام وحزم ... إنك بعيد عن الضعف والمخاتلة ...
إنك صريح ، طبيعى ، شجاع ... تحترم شروط اللعب
بأمانة وإخلاص ... هذا كل ما فى الأمر ...

السلطان : أتتملقيننى ؟!. من الذى عليه تملق الآخر ؟! . إنها الأوضاع
مرة أخرى قد انقلبت ؟ ! . . .

الغانية : أتسمح لى يا سلطانى العزيز ؟ . . .

السلطان : بماذا ؟...

الغانية : بسؤال شخصى . . . أود أن ألقيه عليك ! . . .

السلطان : شخصى ؟ ! . . . أو كل هذا الذى نحن فيه لم يكن
شخصياً ؟ ! . . .

الغانية : أريد أن أسألك عن . . . قلبك ؟ . . . عن الحب ؟ ؟...

السلطان : الحب ؟ ! ... أى حب ؟ ! ...

الغانية : الحب ... لا مرأة ؟ . . .

السلطان : أتتصورين أنه لدى من الوقت ما أشغل فيه بمثل
هذه الأشياء ؟ ! . . .

الغانية : عجيب ! ... قلبك لم يفتح أبداً لحب امرأة ؟ ! . . .

السلطان : ومالك قد فتحت عينيك واسعتين هكذا من الدهشة ! ...
أهى مسألة خطيرة إلى هذا الحد ؟ ! ...

الغانية : لكنك بالتأكيد قد عرفت نساء كثيرات ؟ ! ...

السلطان : بالضرورة ... تلك طبيعة الحياة الحربية . قائد الجيش ،
كما تعلمين ، تساق إليه فى كل ليلة أسيرة من الأسيرات ،
أو سبية من السبايا ... وأحيانا يكون بينهن جميلات ...
هذا كل ما فى الموضوع ...

الغانية : وما من امرأة واحدة بالذات نجحت فى اجتذاب
نظراتك ! ؟ . . .

السلطان : نظراتى ؟ ! ... يجب أن تعلمى أنه فى نهاية اليوم
أعود دائما إلى خيمتى بعينين محشوتين بغبار المعركة ! . . .

الغانية : وفى اليوم التالى ؟ ! ... ألا تحتفظ بذكرى واحدة من تلك
الجميلات ؟ ! ...

السلطان : فى اليوم التالى أعود إلى امتطاء جوادى ... وأفكر فى

شئ آخر ...

الغانيـة : ولـكن الآن ... أنت السلطان . ولديك دون ريب فسحة من الوقت للحب ...

السلطان : أهذا اعتقادك ؟ ! ...

الغانيـة : ما الذى يمنعك ؟ ! ...

السلطان : مشاكل الحكم ! ... وهـذه إحداها ! ... تلك التى هبطت على رأسى اليـــوم ... على غير انتظار ... وأوقعتنى فى هذه الورطة ! ... أترين مشكلة كهذه يمكن أن يصفو معها المزاج للحب ! . . .

الغانيـة «تضحك» : حقا ...

السلطان : تضحكين ! ...

الغانيـة : سؤال آخر . . . هو الأخير ! . . . ثق من ذلك ! . . . سؤال جاد جداً هذه المرة ؛ لأنه يتعلق بى . . .

السلطان : بك ؟ ! . . .

الغانيـة : نعم . . . فلنفرض أنك أعتقت عند الفجر . . . ستعود

طبعا إلى قصرك !...

السلطان: طبعا ... لدى أعمالى هناك تنتظرنى ...

الغانية : وأنا ؟!..

السلطان: وأنت ماذا ؟!...

الغانية : ألن تفكر فى بعد ذلك!...

السلطان: لست أفهم ...

الغانية : لم تفهم حقا ما أعنى ؟!...

السلطان: تعلمين أن لغة النساء تدق على وتغمض فى كثير من الأحيان ...

الغانية : إنك تفهمنى جيدا ... لأنك فى غاية الذكاء والفطنة ، بل وفى رقة الشعور أيضا ، على الرغم مما يبدو عليك ، ومما تريد أن تتظاهر به ... ومع ذلك سأوضح لك لغتى ، إليك ما أريد أن أعرف : هل ستنسانى كلية ، وتمحونى من ذاكرتك بمجرد انصرافك من هنا ؟!...

السلطان: لا أظن أنه فى الإمكان أن أمحوك كلية من ذاكرتى .

الغانيـة : وهل ستحتفظ لى بذكرى طيبة ؟ ...

السلطان : بدون شك ! ...

الغانيـة : وهذا هو كل شىء ؟ ! ... وهكذا ينتهى كل شىء بالنسبة إلى ! ...

السلطان : أسنعود من جديد إلى ما سبق من ...

الغانيـة : لا ... أريد فقط أن أسألك : أهذه الليلة هى ليلتنـا الأخيرة معا ؟ ! ...

السلطان : هذا سؤال ... عسير الجواب ! ...

الغانيـة : حسن ! ... لا تجب عنه الآن ! ...

« تظهر الخادم . . . . »

الخادمة : العشاء معد يا مولاى ! . . .

الغانيـة « تنهض » : تفضل يا مولاى ! . . .

السلطان « وهو ينهض » : إنك لآية فى الكرم والحفاوة ! . . .

الغانيـة : بل أنت الذى تكرم على . . .

« تقوده إلى داخل المنزل . . . تصاحبهما موسيق . . . وينطفئ نور الحجرة ، وتضىء الساحة إضاءة خفيفة . . . . . . »

الإسكاف « الخيار فى ركن من الساحة » : أنظر ! .. هاهما ذان يطفئان النور ! ...

الخمـــار « ناظرا إلى النافذة » : تلك علامة طيبة ! ...

الإسكاف كيف ؟ ! ...

الخمـــار : إطفاء النور معناه الذهاب إلى الفراش ! ...

الإسكاف : وإذن ! ...

الخمـــار وإذن فالاتفاق تام ...

الإسكاف : على ماذا ! ...

الخمـار : على كل شىء !...

الإسكاف : تعنى أنها ستقبـل التخلى عنه عند الفجر ؟ ! ...

الخمـار : نعم ! ...

الإسكاف : وبهذا تـكسب أنت الرهان ! ...

الخمـار : بدون أدنى شك !

الإسكاف : أنت متفائل أكثر مما ينبغى ياصديق ! ... امرأة كهذه تقبل بهذه السهولة أن تلقى بمالها فى البحر ؟!...

الخمار : من يدريك ؟ ! ... إنى أقول: نعم ! ...

الإسكاف : وأنا أقول لا .

الخمار : حسن ... فلننتظر الفجر ! ...

الإسكاف : فى أى وقت نحن الآن ؟ ...

الخمار « ناظراً إلى السماء » : بحسب النجوم ، نحن الآن تقريبا فى منتصف الليل ! ...

الإسكاف : الفجر لم يزل بعيدا ، وقد بدأ يداعبنى النعاس ! ...

الخمار : اذهب إلى فراشك ! ...

الإسكاف : أنا ؟ ! ... مستحيل ! ... المدينة كلها تسهر الليلة ،وأنا الذى ينام ؟ ! ... بل إنى أجدر الناس جميعا بالسهر حتى الفجر ... كى أشهد هزيمتك ! ...

الخمار : هزيمتى أنا ؟ ! ...

الإسكاف : بدون أدنى شك ! ...

الخمار : سنرى من منا المنهزم الخاسر ! ...

الإسكاف « ملتفتا إلى طرف من الساحة » : أنظر ! ... هناك ! ...

الخمار : ماذا ؟ ...

الإسكاف « هامسا » : الوزير والجلاد ... يبدو عليهما مظهر من يتآمر ! ...

الخمار : صه ! ...

« الوزير يقطع المكان جيئة وذهابا ، وهو يستجوب الجلاد . . . . »

الوزير : ماذا سمعت بالتحديد من الحراس ؟ ! ...

الجلاد : سمعتهم يقولون ، يامولاى الوزير : إنه من المستحيل قهر الناس ، وإرغامهم على الرقاد هذه الليلة ! ... إن الجموع لم تزل واقفة أو جالسة القرفصاء فى الدروب والأزقة ، والكل فى تهامس ولغط ...

الوزير : لغط ؟ ! ...

الجلاد : نعم ...

الوزير : وفيم هذا التهامس واللغط ؟ ! ...

الجلاد : فى حكاية السلطان طبعا ... وفى ... وفيما يصنع الليلة فى هذا البيت ...

الوزير : وماذا عساه يصنع فى هذا البيت ؟ ... حسب رأيك ! ...

الجلاد : أتسألنى أنا يا مولاى الوزير ؟ ! ...

الوزير : نعم أسألك أنت ... ألست من الشعب ! ... ورأيك يمثل الرأى العـــام ؟ ! ... أجبنى ! ... ماذا تتصور السلطان يصنع فى هذا البيت ؟ ! ...

الجلاد : فى الواقع ... إنه قطعا ... لا يقيم هناك الصلاة ! ...

الوزير : أتمزح ! ... وتجسر ؟ ! ...

الجلاد : عفوا يا مولاى الوزير ! ... إنما أردت فقط أن أقول إن هذا البيت ... ليس بالمكان المطهر ! ...

الوزير : إذن ... فاللغط يجرى على هذا النحو فى المدينة ؟ ! ... أن السلطان يقضى الليلة فى بيت ...

الجلاد : من بيوت الدعارة ! ...

الوزير : ماذا تقـول ؟ ...

الجلاد : هذا ما يقولون هم يا مولاى ... إنى أروى ما سمعت ...

الوزير : أهـذا كل ما يذكره النـاس من هـــذه المسألة

الخطيرة ! ... ينسون المقصد النبيل ، والهدف السامى ، والفكرة الرفيعة ، والغاية القومية ! ... حتى أنت أيضا قد نسيت كل هذا فيما أرى ...

الجلاد : لا يا مولاى الوزير ... لم أنس شيئا ! ...

الوزير : ستري ! ... قل لى إذن لماذا قبل السلطان دخول هذا البيت ؟ ...

الجلاد : كى ... كى يرضى العاهرة ! ...

الوزير : أهذا كل ما فى الأمر ؟ ! ... يا للإسفاف ! ...

الجلاد : يا مولاى الوزير ! ... لقد كنت حاضراً ... ورأيت وسمعت كل شىء ... منذ البداية .

الوزير : ولم تفهم شيئا من كل ذلك ، إلا الجانب التافه الهابط من المسألة ... أيوجد كثيرون مثلك بين الناس ؟ ! ...

الجلاد : الجميع كانوا حاضرين مثلى ...

الوزير : والجميع فهموا ما فهمت ... فيما أظن ! ... ولا يدور كلامهم حول السبب العميق والمعنى الجليل لكل

ما حدث ... وإنما الكلام يدور حول ما تقول أنت :
السلطان يقضى ليلته فى بيت من بيوت الدعارة ! ...
يا لها من كارثة ! ... تلك هى الكارثة الحقيقية ! ...

« قاضى القضاة يظهر . . . . . . »

القاضى : لم أنم فى ليلتى ! . . .

الوزير : أنت أيضا ؟ ! ...

القاضى : كيف ؟ ... أنا أيضا ؟ ! ...

الوزير : المدينة كلها هى الأخرى لم تنم هذه الليلة ! ...

القاضى : أعرف هذا .

الوزير : والكل يتهامس ويلغط ! ...

القاضى : أعرف هذا كذلك ...

الوزير : وهل تعرف ما يقولون فى المدينة ؟ ! ...

القاضى : أسوأ ما يمكن أن يقال ! ... إن موضع الإثارة والاهتمام عند الناس هو جانب الفضيحة فى المسألة ! ...

الوزير : مع الأسف ! ...

القاضى : إنها غلطتى ! ...

الوزير : وغلطتى أنا أيضا ... كان ينبغى أن أكون أشد حزما فى الدفاع عن رأيى ! ...

القاضى : لكن ... من جهة أخرى ... كيف كنا نستطيع أن نتوقع هذا التدخل من تلك المرأة ؟ ...

الوزير : كان ينبغى أن نتوقع كل شىء ! ...

القاضى : أصبت ! ...

الوزير : الآن ... قضى الأمر ... ولم يعد فى مقدورنا صنع شئ ! ...

القاضى : بل إنه فى مقدورنا أن ننتزع السلطان من هذا البيت ...

الوزير : يجب أن ننتظر الفجر ! ...

القاضى : بل الآن ... وفى الحال ! ...

الوزير : ولكن الفجر لم يزل بعيدا ! ...

القاضى : يجب إحضاره الآن ... وفى الحال ! ...

الوزير : من ؟ ! ... ماذا ؟ ...

القاضى : الفجر ! ...

الوزير : معذرة ! ... لست أفهم ...

القاضى : ستفهم عما قليل ... أين مؤذن هذا المسجد ؟ ...

الوزير « ملتفتا إلى الجلاد » : هذا الجلاد لابد أن يعرف ...

الجلاد : إنه هناك ... بين الجماهير ...

القاضى : اذهب وجئنى به ! ...

« الجلاد يسرع طائعا . . . . »

الوزير « للقاضى » : يبدو أن لديك خطة ما ؟ ...

القاضى : نعم ! ...

الوزير : هل لى أن أعرفها ؟ ...

القاضى : عما قليل ! ...

« المؤذن يظهر لاهثا . . . . . . »

المؤذن : هأنذا ... يا مولاى القاضى ! ...

القاضى : اقترب ! ... أريد أن أحدثك بخصوص الفجر ...

المؤذن : الفجر ؟ ! ... ثق يا مولاى القاضى أنى لم أرتكب خطأ ... هذا الجلاد يتهمنى زورا وبهتانا بأنى ...

القاضى : استمع إلى جيدا . . .

المؤذن : أقسم لك يا مولاى القاضى أنى فى ذلك اليوم . . .

القاضى : ألن تكف عن هذه الثرثرة الفارغة . . . قلت لك استمع
إلى جيدا . . . أريد منك أن تنفذ ماسأقول بالحرف...
أفاهم ؟ ...

المؤذن : نعم ! ...

القاضى : اذهب واصعد فوق مئذنتك ، وأذن لصلاة الفجر ! . . .

المؤذن : متى ؟ . . .

القاضى : الآن ! . . .

المؤذن « مندهشا » : الآن ؟ ! . . .

القاضى : نعم ، وفى الحال . . .

المؤذن : الفجر ؟ ! . . .

القاضى : نعم . . . الفجر . . . اذهب وأذن لصلاة الفجر ! . . .
أواضح كلامى هذا أم غير واضح ؟! ...

المؤذن : واضح ...ولكننا الآن تقريبا فى ... منتصف الليل ! ...

القاضى : فليكن ! ...

المؤذن : الفجر فى منتصف الليل ؟! ...

القاضى : نعم ! ... وأسرع ! ...

المؤذن : أليس هذا ... متقدما عن موعده قليلا ؟! ...

القاضى : لا ! ...

المؤذن « هامسا لنفسه » : لقد احترت مع هـــذا الفجر ... مرة يطلب منى تأخيره ، ومرة يطلب منى تقديمه ! ...

القاضى : ماذا تقول ؟ ...

المؤذن : لا شىء يا مولاى القــاضى ... سأذهب فورا لأنفذ أمرك ! ...

القاضى : اسمع ! ... إياك أن تقول لأحد إن القاضى هو الذى أصدر إليك هذا الأمر ! ...

المؤذن : تعنى يا مولاى ؟ ...

القاضى : نعم ... إنك أنت الذى تصرف هكذا من تلقاء نفسه ! ...

المؤذن : من تلقاء نفسي ؟ ! . . . أصعد فوق المئذنة لأؤذن الفجر في منتصف الليل ؟ . . . إن من يتصرف هكذا لابد أن يكون معتوها مخبولا ! . . .

القاضي : دع لي أنا مهمة تفسير تصرفك ، في الوقت المناسب ! ...

المؤذن : لكن يا مولاي ... إني بهذا العمل سأعرض نفسي لسخط الجماهير ... وسيطالبون بعقابي ! ...

القاضي : وأمام من ستقدم وتحاكم ؟ ... أليس أمامي أنا قاضي القضاة ؟ ! ...

المؤذن : وإذا أنكرتني وتخليت عني !

القاضي : لا تخف ! ... لن يحدث هذا مطلقا ...

المؤذن : وكيف أطمئن ؟ ...

القاضي : أعدك ... ألا تثق بوعدي ؟ ! ...

المؤذن « هامسا لنفسه » : الوعود الليلة كثيرة ... وما من أحد متأكد من شيء ؟ ! ...

القاضي : ماذا تقول ؟ ! . . .

المؤذن : لا شيء ... أتساءل فقط : لماذا التعرض لكل هذا الخطر ؟ ! ...

القاضى : إنها خدمة تقدمها للدولة ...

المؤذن « مندهشا » : للدولة ؟ ! ...

القاضى : نعم ، وسأفضى إليك بالأمر ليطمئن قلبك ! ... اسمع ! ... إنك إذا أذنت لصلاة الفجر الآن ، فإن السلطان يخرج فى الحال من هذا المنزل حرا طليقا ... هذا كل الموضوع فى كلمتين ... فهمت الآن ؟! ...

المؤذن : إن هذا لعمل وطنى ! ...

القاضى : إنه بالفعل كذلك ... ماقولك إذن ؟ ! ...

المؤذن : سأقوم فورا بهذا العمل ... وسأكون فخورا به طول حياتى ... واسمح لى يا مولاى القاضى أن أفضى إليك أنا أيضا ، والكلام فيما بيننا ، أنى سبق أن كذبت كذبة صغيرة من هذا القبيل لأنقذ رأس محكوم عليه بالإعدام ، فكيف لا أفعل مثلها كى أستخلص حرية

مولانا السلطان المحبوب ! ...

القاضى : أصبت ، ولكنى أوصيك بالكتمان ! ... إياك أن تطلق لسانك بالثرثرة ! ... خبئ فرحك هذا فى صدرك. لأنك إذا جعلت تباهى بما فعلت فى ظروفنا هذه فإن العمل كله يفسد ... أغلق فمك جيداً إذا أردت لعملك أن يثمر ويقدر ! ...

المؤذن : سأغلق فمى ! ...

القاضى : حسن ... أسرع الآن وقم به ! ...

المؤذن : أسرع من الريح ! ...

« ينصرف المؤذن على عجل . . . »

القاضى « للوزير » : ما رأيك ؟ ...

الوزير : هل تظن حيلة كهذه ستصلح الأمور ؟ ! ...

القاضى : نعم ، وعلى أحسن ما يكون ... لقد جعلت هذه الليلة أقلب الأمر على كل وجه . . . إنى ما عدت أعتبر نفسى قد هزمت ! ... فلم يزل فى جعبتى — أو على الأصح فى

جعبة القانون ـــ كثير من الحيل ! . . .

الوزير : نسأل الله ضارعين أن تنجح لك حيلة هذه المرة ! . . .
كرامتك الشخصية أصبحت فى الميزان !

القاضى : سوف ترى ! . . .

« صوت المؤذن يرتفع . . . . . . »

المؤذن « من بعيد » : الله أكبر ! ... الله أكبر ! ... حى على
الصلاة ! ... حى على الصلاة ! ... حى على الفلاح ! ...
حى على الفلاح ! . . .

« الجماهير تظهر فى هرج ومرج ودهشة
واحتجاج وسخط . . . . »

الشعب « صائحا » : الفجر ؟ ! ... الآن ؟ ... والليل قائم ... نحن
فى وسط الليل ... إنه مجنون ! ... هذا مجنون ... اقبضوا
عليه ... أنزلوه ... أنزلوه من فوق المئذنة ... أنزلوه ...

الوزير « للقاضى » : الجماهير ستبطش بهذا المسكين ! ...

القاضى : مر حراسك بتفريق الجموع ؟ ...

الوزير « صائحا فى الحراس » : اخلوا الساحة . . . اخلوا الساحة

من الجميع !...

« الحراس يطردون الناس ويخلون الساحة. بينما يستمر المؤذن فى الأذان . . . وعندئذ يضئ النور فى حجرة الغانية ، وتظهر هى فى النافذة يتبعها السلطان . . . . . . »

الغانية : أهو حقا الفجر ؟ . . .

القاضى : إنه الأذان لصلاة الفجر ! . . . انزلى هنا فى الحال ؟ ! . . .

الغانية : هذا غير معقول ... انظروا إلى النجوم فى السماء ...

السلطان « ناظرا إلى السماء » : حقا ... هذا أمر غريب ! ...

القاضى : قلت لك انزلى فى الحال أيتها الغانية ! . . .

السلطان « للغانية » : فلننزل معا لنرى ما فى الأمر ! . . .

الغانية : هلم بنا يا مولاى ! . . .

« يغادران الحجرة ، ويطفأ نورها ، ثم يظهران خارجين من المنزل . . . . . »

السلطان « وهو ينظر إلى السماء » : الفجر ؟ ! . . . فى هذه الساعة ؟ ! . . .

الوزير : نعم يا مولاى السلطان ! ...

السلطان : هذا حقاً عجيب ! ... ما قولك أيها القاضى ؟ ! ...

القاضى : لا يا مولاى السلطان ... الفجر لم يبزغ بعد ! ...

الوزير «مأخوذاً» : كيف ؟ ! ...

القاضى : هذا شىء واضح ... نحن ما زلنا بالليل ! ...

الوزير «القاضى وهو مندهش» : لكن ...

القاضى : لكننا كلنا قد سمعنا المؤذن يؤذن لصلاة الفجر ؟ ! ... سمعت ذلك أيتها المرأة ؟ ! ...

الغانية : نعم ، سمعت ! ...

القاضى : أنت إذن معترفة بأنك سمعت صوت المؤذن يؤذن لصلاة الفجر ؟ ! ...

الغانية : نعم ، ولكن ...

القاضى : لا كلام بعد ذلك ! ... مادام قد صدر منك هذا الاعتراف ، فلم يبق لك إلا الوفاء بوعدك ... هاهى ذى حجة العتق ، وما عليك إلا التوقيع .

« يقدم إليها الحجة . . . . »

الغانية : لقد وعدت بالتوقيع عند الفجر ... وهأنتذا أيها القاضى تعترف بأننا لم نزل بالليل ! ...

القاضى : مهلا أيتها المرأة ! . . . إن وعدك منقوش فى رأسى كلمة كلمة ! . . . لقد قلت بالحرف : « عنــــد سماع صوت المؤذن وهو يؤذن لصلاة الفجر . » فالمسألة كلها الآن تنحصر فى هذا السؤال : « هل سمعت أو لم تسمعى صوت المؤذن ؟ ... »

الغانية : سمعت ولــكن ... مادام الفجر لم يزل بعيداً ...

القاضى : لم يكن الفجر ذاته فى الموضوع ... ولــكن الوعد انصب على صوت المؤذن وهو يؤذن لصلاة الفجر . . . فإذا أخطأ المؤذن فى التقدير أو التصرف ، فهو مسئول عن خطئه . . . هذا شأنه هو . . . ولــكنه ليس شأننا نحن ... أفهمت ؟ ؛ ...

الغانية : فهمت ... لابأس بها من حيلة ! ...

القاضى : إن المؤذن سيحاكم بالطبع على خطئه ... ولــكن هذا لا يغير

شيئاً من طبيعة الواقع : وهو أننا جميعاً سمعنا المؤذن يؤذن لصلاة الفجر من فوق مئذنته . وإذن فكل النتائج القانونية المترتبة على ذلك يجب أن تأخذ مجراها ... وفى الحال ! ... هلمى إذن ووقعى ! ...

الغانية : أهكذا تفسر شرطى ؟ ! ...

القاضى : كما فسرت أنت شرطنا ! ...

الوزير : لقد وقعت فى عين شباك القانون . سلمى إذن ووقعى ! ...

الغانية : ليس هذا من الأمانة ! ... إنه لمحض تحايل ! ...

الوزير : تحايل بتحايل ! ... وأنت البادئة ، والبادئ أظلم ! ... وأنت آخر من يجوز له الاعتراض والاحتجاج ! ...

السلطان « صائحا » : ياللعار ! ... كفى ... كفى ! ... أبطلوا هذا العبث ! ... كفوا عن هـــذا الصغار ! ... إنها لن توقع ... إنى أرفض رفضاً باتا أن توقع بهذه الطريقة ! ... وأنت ياقاضى القضاة ألا تخجل من اللعب هكذا بالقانون ؟ ! ...

القاضى : يامولاى السلطان . . .

السلطان : لقد خاب ظنى !... خيبت ظنى فيك ياقاضى القضاة ! ...
أهذا هو القانون فى رأيك ؟ ! . . . اجتهاد وبراعة
فى التحايل والتلاعب ؟ ! . . .

القاضى : إنما أردت يامولاى أن . . .

السلطان : أن تنقذنى . . . أعرف ذلك ... لكن ... هل تظن أنى أقبل
إنقاذى بمثل هذه الوسائل ؟ ! ...

القاضى : مع امرأة كهذه يامولاى ... من حقنا أن ...

السلطان : لا ... ليس من حقك هذا على الإطلاق ! ... ليس
من حقك ! ... قد يكون من حق هذه المرأة أن
تتحايل ... ولا لوم عليها إذا هى فعلت ... وقد تكون
موضع تسامح لذكائها وبراعتها ! . . . أما قاضى القضاة ،
ممثل العدالة ، وحامى حمى القانون ، وخادم الشرع
الأمين ، فإن من ألزم واجباته أن يحفظ للقانون نقاءه
وطهره وجلاله ، مهما يكن الثمن ! ... وأنت نفسك

الذى أرانى فى البداية فضيلة القانون وما ينبغى له من احترام ، وقال لى إنه هو السيد المطاع ، وإن على أنا أن أنحنى أمامه . . . وقد انحنيت بكل خضوع حتى النهاية - لكن ، هل كان يخطر لى على بال أن أراك أنت فى آخر الأمر تنظر إلى القانون هذه النظرة ؛ وتجرده من رداء قدسيته ، فإذا هو بين يديك لا أكثر من حيل وجمل وألفاظ وألاعيب؟ ! ...

القاضى : دعنى أشرح لك يا مولاى ! ...

السلطان : لا ... لا تشرح شيئاً ! ... اذهب الآن ! ... خير لك أن تعود إلى دارك وأن تأوى إلى فراشك حتى الصباح ! ... أما أنا فسأحترم شرط هذه السيدة بمعناه الحقيقى الذى فهمناه كلنا ! ... هلمى يا سيدتى ! ... لنعد معاً إلى بيتك ! ... إنى طوع أمرك ! ...

الغانية : لا يا مولانا السلطان ! ...

السلطان : لا ؟ ! ...

الغانية : لا ... إن قاضى قضاتك أراد أن ينقذك ... وإنى لا أحب أن أكون أقل منه إخلاصا لك ! ... أنت الآن حر يا مولاى ! . . .

السلطان : حر ؟ ! . . .

الغانية : نعم . . . هات حجة العتق يا قاضى القضـــاة لأوقع عليهـــا . . .

القاضى : توقعين الآن ؟ ! ...

الغانية : نعم الآن ! ...

القاضى « يقدم إليها الحجة » : اللهم اجعلها صادقة ! ...

الغانية « توقع على الحجة » : صدقنى هـــذه المرة ! ... هاك توقيعى ! ...

القاضى « وهو يفحص بنظره التوقيع » : نعم ... أنت رغم كل شىء امرأة طيبة ! . . .

السلطان : بل إنها لمن فضليات النساء ! . . . وعلى أهل المدينة أن يحترموها ! ... هذا أمر ! ... أيها الوزير ! ...

الوزير : سمعاً وطاعة يامولاى ! ...

القاضى « وهو يطوى الحجة » : تم كل شىء الآن يا مولاى ... على خير ما يرام ! ...

السلطان : وبغير أن تسفك قطرة دم ! ... وهذ هو الأهم ! ...

الوزير : بفضل شجاعتك يامولانا السلطان ! ... من كان يتصور أن السير إلى نهاية هذا الطريق يحتاج إلى شجاعة أكبر من شجاعة السيف ؟! ...

القاضى : حقاً ! ...

السلطان : فلنتقدم بالثناء على كرم هذه السيدة النبيلة ... اسمحى لى يا سيدتى أن أوجه إليك شكرى ، وأن أرجو منك أن تقبلى رد مالك إليك ، إذ لم يعد هنالك من سبب يدعو إلى خسارة مالك ! ... أيها الوزير ! ... فليدفع إليها من مالى الخاص ما يعادل المبلغ الذى خسرته ! ...

الغانية : لا ... لا يامولاى السلطان ! ... لا تسترد منى

هذا الشرف ! . . . مامن ثروة فى الأرض تعدل عندى
هـــذه الذكرى الجميلة ، التى سأعيش عليها طول
حياتى : إنى بشىء زهيد أسهمت فى حدث من أعظم
الأحداث ! ...

السلطان : حسن .. . مادام للذكرى عندك هذا الشأن ، فاحتفظى إذن
بهذا التذكار ...

« يخلع الياقوتة الكبرى من عمامته . . . . »

الوزير « هامسا » : الياقوتة ؟! .. الفريدة فى الدنيا ؟! ...

السلطان : إلى جانب فضلها ، تعتبر شيئاً بخساً ! . . .

« يقدم إليها الياقوتة . . . . . . »

الغانية : لا يامولاى السلطان العزيز ... لست أستحق ... لست
جديرة بكل هذه ... هذه ...

السلطان « وهو يتحرك للانصراف » : وداعاً أيتهـــا السيدة
الفاضلة ...

الغانية « وفى عينيها عبرة » : وداعاً أيها السلطان العزيز ! ...

السلطان « يلمح دمعتها » : أتبكين؟ ...

الغانية : من الفرح ! ...

السلطان : لن أنسى أبداً أنى كنت عبدك ليلة ! ...

الغانية : فى سبيل المبدإ والقانون يامولاى ! ...

« تطرق لتخفى دمعها . . . . . » :

« موسيقى ... ويتحرك موكب السلطان »

ستـــار

نماذج ومقتطفات

لبعض ما نشر عن المسرحيات المترجمة

* صحيفة « نور إكلير » « شمال فرنسا »:

« إن مسرح توفيق الحكيم قد فرض علينا - نحن الغربيين - الالتفات إليه ... إن رسالة توفيق الحكيم ، وإن كانت فى نتائجها النهائية لا تختلف كثيرا عما نهدف إليه، وما برح يشغلنا منذ أعوام، إلا أنها فى المجال المسرحى تعبر عن عقيدة قديمة للعالم العربى ، عقيدة طالما سخر منها - بغير وجه حق - كثير من الأوربيين : إن مأساة الحياة لتكشف عن عجز أساسى فى الإنسان أمام مصيره .»

روبير كيمب « عضو الأكاديمية الفرنسية » « باريس » :

لقد قرأت المسرحيات العشر (فى المجلد الأول) لتوفيق الحكيم؛ بل وأعدت قراءة مسرحيتين منها . وإنى لأعلن بكل ما فى نفسى من إخلاص أنى وجدتها كلها بالغة الأهمية . وكم أتمنى لو ظفرنا - ولو بين الحين والحين - ضمن ما يرد إلى مسرح « الكوميدى فرانسيز » من نصوص بمثل هذه الثروة فى الفكر والروعة فى الشكل . إن توفيق الحكيم يملك موهبة الرمز والمجاز ، ويستخدمها

* هذه المقتطفات هي ترجمة لنص ما أورده الناشر الفرنسي من أقوال الصحف على غلافى المجلدين الثانى والثالث من « مسرحيات الحكيم » التى نشرت بالفرنسية وثلاثة مجلدات تضم خمسة وعشرين مسرحية فى نحو ١٢٠٠ صفحة ظهرت ابتداء من عام ١٩٥٠ فى باريس بدار نشر « نوفيل أيديسيون لاتين » .

بفخامة . وإنى بغير تردد ، أؤكد أن القيمة العليا نراها واضحة فى المجلد كله . »

مجلة « رفليه » « جنوب فرنسا » :

« عشر مسرحيات (المجلد الأول) بعضها سيبقى بين الأعمال الخالدة للفن المسرحى . »

صحيفة « لينوفيل ليترير » « باريس » :

« المسرحيات التسع الأخرى فى (المجلد الأول) ، على اختلاف منابع وحيها ، تردد تلك النغمة الخالدة التى تراود المؤلف : عجز الإنسان أمام مصيره .

صحيفة « ليبر بلجيك » « بلجيكا » :

« بينما « ييتس » فى جوهره شاعر ، فإن « الحكيم » ينتمى إلى الأخلاقيين ، فهو حريص على تتبع الإنسان فى مهاويه وشياطينه ... إن فن هذا الكاتب المسرحى يلقى تحت إضاءة محكمة ما فى عصرنا من شخصيات عظيمة وحقيرة

صحيفة « لاتريبون دى جنيف » « سويسرا » :

« إن هذه المجموعة (من المجلد الثانى) تنقسم إلى ثلاثة أجزاء المسرح السياسى ، والمسرح الفكاهى ، والمسرح التراجيدى ...

إن توفيق الحكيم لذو صنعة وخيال . وإننا لنأمل لمسرحيات كهذه أن يكون لها نظارة كثيرون ، وليس قراء فقط ؛ فهى جديرة بالتمثيل فوق مسارحنا . »

صحيفة « جازيت دى لوزان » « سويسرا » :

« لقد كشف لنا (المجلد الأول) عن قوة السخرية لدى الحكيم ، بل وعلى الأخص عن ملكاته الشعرية . وها هى مجموعة (المجلد الثانى) قد ظهرت ... إنه يكتب بحذق ، ويرسم الصور بدقة وترف ، وبروح فكهة نفاذة . »

صحيفة « ريبلكان اورين » « اللورين » :

« إنها (المجلد الثانى) مجموعة ساحرة ، تنطوى على فلسفة لا ادعاء فيها ، مفعمة بروح التفاؤل والفكاهة المستمدة بعناية من الواقع . »

مجلة « يوفوليا » « باريس » :

« إن أغنية الموت (فى المجلد الثانى) تحفة فنية حقيقية ، يجب أن توضع فى مكان الشرف من مسرح الثقافة العصرية ... إنها الحكم الدامغ على الأحقاد الوحشية ، وعلى المعارك المجنونة ، وعلى الجهل والأفكار الخاطئة المتأصلة التى تطيل أمد الشقاء البشرى ... هذه المأساة إن هى إلا احتجاج أليم على مصير يلح فى إنماء

الأكاذيب التى تقتل . »

مجلة راديو تايمز « لندن » :

١٨ مارس ١٩٥٥

مرجريت ابنوده وجوده جلجود

في « شهر زاد »

هــذه القصة القديمة أصبحت لها نهاية جديدة فى مسرحية توفيق الحكيم عن شهر زاد والملك الذى أسرته بقصصها ... ويعرض هنا « ريتشارد بنيت » هذه المسرحية التى سيقدمها البرنامج الثالث يومى الاثنين والجمعة ، بعد أن نقلت إلى الإنجليزية :

تبدأ مسرحية شهر زاد لتوفيق الحكيم صباح اليــوم التالى للألف ليلة وليــلة ، وقد قصت جميع الحكايات المعروفة ، والملك شهريار متبرم ضجر ، يخشى رعاياه أن يكون قد أصيب بالجنون ، ويرى الوزير أن حيرة الملك مبعثها الحب لزوجته شهرزاد التى يحبها الوزير نفسه حبا شريفا . . .

أما الملك فهو فى نظر شهر زاد مازال الطفل المشاكس ، الخطر أحيانا ، الذى يردد : « ليس فى الحياة من جديد ... استنفدت كل

شيء ... ما قيمة عمرى الباقى ... لقد استمتعت بكل شيء وزهدت فى كل شيء » . وهو قد شبع فعلا من حياته الحيوانية العنيفة ، وملها ، وأخذ يبحث عن الحكمة فى الأسفار ... إنه يريد أن يرى ماهو كائن...ما هو حقيقى فى الوجود : « ... دعك من الخيال يا قمر. مضى ذلك العهد الساذج ... اليوم نريد الحقائق ... نريد الواقع... نريد أن نرى بأعيننا وأن نسمع بآذاننا ... »

إن مسرحية « شهر زاد » غنية بتفاصيل أساطير الشرق ، ويزين غموض الشرق فيهـــا ، ويزيد عليه ما تحويه المسرحية من التعقيد النفسى كما نفهمه فى الغرب ... والحوار الذى يدور بين شهر زاد والملك والوزير — وقد لعب أدوارهم كل من « مرجريت ليتون » و « سيرجون جلجود » و « كارلتون هوبز » — هو حوار متألق بالذكاء والروح ، والملك على الرغم من ماضيه المخضب بالدماء مخلوق بائس كثير التأمل ، والوزير حائر بين فكرته المثالية عن حبه لشهر زاد وبين ولائه لسيده... كل ذلك لو أنه حدث فى عصر آخر وفى بيئة أخرى ؛ لكان من المفيد للرجلين أن يستشيرا طبيبا نفسانيـا .

أما « شهر زاد » فهى فى مثل صلابة « آن هوا يتفيلد » فى

مسرحية شو « الإنسان والإنسان الأعلى » إلا أن سلوكها أكثر انطلاقا ، فهى تتخذ عشيقا زنجيا فى غيبة الملك .

وهذا العمل بعينه كانت قد اقترفته زوجة سابقة ، وهو الذى دفع الملك إلى ممارسة هذا النظام الرتيب : الزواج فى المساء وإعدام الزوجة فى الصباح . ذلك النظام الذى لم يخل به إلا موهبة شهرزاد القصصية ، ولم تعد تخشى الاضطرار إلى سرد القصة الثانية بعد الألف . فقد قالت لعشيقها العبد عن الملك : إنه قد ألقى وراء ظهره بكل تجاربه الحسية والحيوانية . ويسألها العبد : وأين هو الآن ؟ (وهذا العبد رجل بسيط ، لا يداوم سؤالها عمن تكون كما يفعل الملك والوزير) فتجيب : هجر الأرض ولم يبلغ السماء ، فهو معلق بين الأرض والسماء .

وفى تلك اللحظة ... يكون الملك فى « خان أفيون » مع الوزير حيث يعلمان بخيانتها ، ويقدم المشهد الختامى المتوتر ما يبدو لأول وهلة أنه موقف تقليدى ، ولكنه ينتهى نهاية غير تقليدية . وتترك الشخصيتان الباقيتان لتشقا طريقهما فى الحياة .

جريدة التايمز — لندن ٢٢ مارس ١٩٥٥ م

شهرزاد لتوفيق الحكيم

تتناول « شهر زاد » التي أذيعت مساء أمس في البرنامج الثالث من إخراج « مستر كريستوفر سايكس » أسطورة ألف ليلة وليلة في فترة طريفة، في الليلة الثانية بعد الألف، حين تكون شهر زاد قد فرغت من سرد كل قصصها، ويكون إعدامها قد أرجئ إلى حين، ويكون لهذه الأقاصيص تأثير مطهر على الملك شهريار؛ فكأنه قد ولد من جديد، فيقرر نبذ الحياة الشهوانية والحيوانية — حتى فيما يتعلق بشهرزاد نفسها — ويمضي يحاول البحث عن أرض الواقع، التي تبينها أول ما تبين من قصص شهر زاد نفسها. ويقوده بحثه المحير — مصحوبا بموسيقى غريبة من وضع « مستر نورمان فوربر كاي » — إلى الصحراء الشاسعة هو ووزيره قمر . . . وأخيرا إلى مجلس الأفيون. ويعترف شهريار أثناء رحلته هذه بعلة قلقه وعدم استقراره : « اليوم نريد الحقائق... نريد الواقع ... نريد أن نرى بأعيننا وأن نسمع بآذاننا ... »

وقد استطاعت مسرحية الحكيم الأسطورية — في ترجمتها الممتازة ، التي قام بها « مستر سايكس » — أن تحمل خلال بساطتها

الجميلة مثل هذه المشاعر دون الانهيار تحت وطأتها . وإن جمعها بين روح السخر ، والتأمل الفلسفى ، والإحساس بالمذلة العميقة ، أمام الأشياء الغامضة التى تحاول كشفها ، قد جعل من الإصغاء إليها تجربة نادرة ... على أنه لا يمكن للعقل الغربى إلا أن يصدم بما فيها من غموض مقصود ورمزية غير مألوفة . فى حين أن القمر عندنا مؤنث نجد هنا أن « الوزير » قمر « مستر كارلتون هوبز » الذى يعنى اسمه القمر ، متيم بحب شهر زاد التى ترمز للشمس ... ويموت القمر « قمر » بطريقة محيرة ؛ لأنه لا يستطيع المضى فى إيمانه بأن الشمس تستحق العبادة ، فى حين أن سيده الملك شهريار يجب أن يستأنف بحثه عن الحقيقة ، معلقا بين الأرض والسماء .

الممثلون اختيروا من الممتازين ، وأدوا أدوارهم خير أداء ، وستعاد إذاعة المسرحية يوم الجمعة ، وقد أدى « سير جون جلجود » دور شهريار أداءً سيظل فى الذاكرة ، بتعبيره عن القلق والشك اللذين ينتابان الطاغية الذى زهد السلطان والجمال ، كما أبرزت « مس مرجريت ليتون » ما فى الملكة الجريئة شهر زاد من قوة المقاومة الذكية الفطنة .

شهرزاد

على مسرح « الكوميدى دى بارى » باريس — نوفمبر ١٩٥٥

للكاتب الفرنسى « الكسندر أرنو »
عضو أكاديمية جونكور :

لا ينبغى أن ننتظر من هذه المسرحية صورة سهلة للشرق ، مما يخطف البصر ، كما اعتدناهذا التصور للبلادالنائيةعنا . فتوفيق الحكيم الذى وضعها بالعربية هو نفسه شرقى . فسوء الفهم إذن ، أو الوقوع تحت تأثير سحر البلاد البعيدة أشياء لا توجد بالنسبة إليه . فهو إذن يدخل مباشرة فى صميم قصص ألف ليلة وليلة ، كما ندخل نحن فى حكايات « أمى الأوزة » المألوفة لدينا ... فما من « ديكور » مفتعل أو متعمد للإدهاش يخفى عنه قيمتها الحقيقية وعمقها الإنسانى فهو لا يكتشفها من الخارج ولا من السطح ، ولكنه يغوص فيها ، وهى التى أرضعته وغذته أبا عن جد . فهو إذن يتمتع بسلطة وحرية فى اللعب بمادة ليست غريبة عليه ، يعجنها ويكيف أشكالها ، ويوفقها مع الأنغام الحديثة التى يملك كل منابعها ، ويستخدمها بأبسط وأدق وسائلها .

إن شهرزاد قد بذلت — فى مبدإ الأمر — كل مالديها من

مواهب وخيال قصصى لتنقذ حياة عذارى كان السلطان شهريار يذبحهن كل صباح غيرة منه وحقدا ، بعد أن خدعته زوجته مع زنجى ... ولكن شهر زاد انتهت بالوقوع فى الشرك الذى نصبته ، بأن أحبت ذلك الذى اعتبرته فى أول الأمر جلاد بنات جنسها . على أن قصصها وما أحدثته من فتح للنوافذ على العالم ، قد غيرت شهريار ، وجعلته يصبح — رويدا رويدا — رجلا آخر ، يملؤه القلق والرغبة فى أن يسمو على نفسه ، وأن يخترق حجب الأسرار وأن يحيط معرفة بكل شئ . وهنا عقدة المأساة . فإن هذين الكائنين اللذين يواجه أحدهما الآخر اليوم ، ماعادا هما نفس الشخصين اللذين عاشا أول الأمر ... إن توفيق الحكيم الشاعر والكاتب المسرحى عالج هذا الموضوع الكبير الذى يمس جوهر الإنسان بآماله ويأسه ، معالجة مبعثها قوة داخلية لا تنضب ، وهو لا يستسلم أبدا فى التعبير لبريق الألفاظ ، ولا يستخدم غير أبسطها ، محملا إياها من المعانى ومما لا ندرى من أى سحر ، مايضيئها من الداخل ... إنه قد شيد أثراً فنيا من النور ، دون أن يلجأ إلا إلى ألوان من الظلال . »

بجماليون

على مسرح « الموزارتيوم » بسالزبورج

« سالزبورجر فولكزبلات » فى ٨ ديسمبر سنة ١٩٥٣

إن تمثيل مسرحية «بجماليون» يعتبر كسبا فكريا للموزارتيوم ، وللحياة المسرحية فى النمسا . وتوفيق الحكيم المؤلف المسرحى المعاصر ، لا ينسى فى مسرحياته مسائل العصر ... وهو قد جعل من بطل الأسطورة فى مسرحيته « بجماليون » بطل مأساة — على عكس ما فعله « برناردشو » من معالجته الموضوع على النحو الكوميدى ... وتتميز مسرحية توفيق الحكيم بقيمتها الشعرية وثروتها الذهنية . وكان إخراج الدكتور جيزآريش لهذه الرواية صارما بالغا فى الصرامة . غير أن تلك الطريقة فى الإخراج لم تعق الممثلين من إظهار جهدهم . ووضع الموسيقى « جيرهارد فمبرجر » المسرحية فى إطار موسيقى ملائم كل الملاءمة. أما توزيع الأدوار فربما كان من الأنسب أن يختص الأساتذة الكبار بأدوار الآلهة فى القصة . فيقوم « كارل بلوم » مثلا بدور « أبولون » إلى جانب « هيرتا فير » فى دور «فينوس»... ولقد أبدى الجمهور — الذى ضم كل الشخصيات البارزة فى المجتمع بمدينة « سالزبورج » وعلى

رأسهم محافظ الإقليم دكتور كلاوس — أبلغ تحمسه وإعجابه بالمسرحية والتمثيل ... »

« فينر زايتونج » فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٥٣

كان يبدو أن تمثيل « بجماليون » لتوفيق الحكيم ، على المسرح الأوروبى سيواجه منافسا خطراً هو « برناردشو » — الذى عرض لنفس الأسطورة القديمة — ولكن توفيق الحكيم عالج موضوع الأسطورة الإغريقية القديمة بطريقة خاصة مستقلة وأصيله مبتكرة . وهنا كانت المفاجأة : فقد نجح المؤلف المصرى فى إيجاد الصلة المباشرة بالمنبع الإغريقى ، بغير الالتجاء إلى الوسائل المفتعلة التى يتوسل بها كثير من الكتاب الغربيين . وربما كان مرجع هذا إلى أن الشرق كان له اتصال وثيق بالكلاسيكية الإغريقية قبل أوروبا ... ولقد أبرز المؤلف المصرى فكرة الكفاح الإنسانى الخالد فى الخلق ، هذا الكفاح الذى لا يقنع بما تم أبدا ... كل ذلك فى لغة تهمس بالتأمل والشعر وفى شكل جديد من الأسلوب الفنى .

ولقد قام بعرض هذه المسرحية ممثلو أكاديمية « الموزارتيوم » على نحو يسمو على المعتاد ... فنهض « كارل بلوم » بدور « بجماليون » فى صراعه بين عمل الفن والحياة ، كما نهضت

« ايريكا ليزا كوفسكا » بدور « جالاتيا » الصعب . فى حين أن « مرجريت جروبهوفر » و « لوتز هابر كورن » قد لعبا دورى « إيسمين » و « نارسيس » على نحو آلى. أما « هيرتا فيبر و « ت، ويسلر » فقد ارتفعا حقا إلى مرتبة آلهة الأولب . وكان إخراج الدكتور « جيزاريش » متناسقا رائع التأثير ، وموسيـــقى « جير هارد فبرجر » بارعة فى الإيحاء ، وقد كان تصفيق الاستحسان طويلا حارا .

« داى بريس » فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٥٣ م

كان لقــــاء مهما ومفيدا مع الـكاتب المصرى المعاصر « توفيق الحكيم » ذلك العرض الأول الذى شاهدناه على مسرح « الموزارتيوم » الـكبير « لبجماليون » وهى مسرحية فى أربعة فصول ... ألفها « الحكيم » بموهبة شعرية عالية ... كشف فيها عن الإنسان فى سخطه الخالد ، وخلافه الدائم مع الآلهة . وكان إخراج « جيزاريش » سليما ، متناسق العناصر فى إطار المنـاظر الأنيقة التى صممها « جوستاف فارجو » ، والموسيقى التى وضعها « جيرهارد فبرجر » ، وكان استقبال المسرحية والمؤلف الحاضر على أقوى ما يكون من الحماسة .

« فينر كورير » ٨ ديسمبر سنة ١٩٥٣ م .

كان العرض الإفتتاحى لمسرحية « بجماليون » لتوفيق الحكيم فى القاعة الكبرى للموزارتيوم، حدثا ثقافيا واجتماعيا شاهدته الشخصيات البارزة فى مدينة « سالزبورج » وإقليمها ... والمسرحية عميقة الموضوع ، تتخللها فواصل ملطفة متماوجة ، من جوقة الفتيات التسع اللاتى يمثلن عرائس الوحى ، تحت أنظار « فينوس » و « أبولون » المشرفة على ذلك الصراع بين الفن والحياة. هذا الصراع الذى انتهى بموت « بجماليون » وجعل الآلهة تقول : « إن البشر يحطمون ما يخلقون من جمال ليبدءوا من جديد ... وقد استطاع إخراج الدكتور « جيزاريش » التعبير عن مأساة الفنان العبقرى فى صراعه الخالد ، بأداء متسق فى مجموعه ... وقد حيا الجمهور — الذى كان يملأ المكان — المؤلف والممثلين بحماسة بالغة .

« ديمو كراتش فولكربلات » فى ٨ ديسمبر سنة ١٩٥٣ م

« بجماليون » الفنان الملهم ... فى خلافه مع نفسه ومع العالم ... إنها ليست حالته وحده ؛ بل المصير الذى يتكرر دائما ما دام على الأرض فنانون ... وقد أدى « كارل بلوم » شخصية المثال « بجماليون » أداء كشف عن مأساة العبقرية . كما أدى « لوتز هابركورن » دور

« نارسيس » أداء جمع بين الجمال والبساطة . وكانت « مرجريت جرو بمولر » ساحرة فى دور « إيسمين » ... أما الاستقبال الذى قوبلت به المسرحية من النظارة فكان رائعا . وقد تلقى المؤلف شخصيا (وهو يعتبر خالق المسرح الفكرى فى الأدب العربى) هتاف الإستحسان من الجمهور المحتشد فى الصالة ...

« سالزبورجر فولكرا يتونج » فى ٨ ديسمبر سنة ١٩٥٣ م .

اجتمعت فى مساء الأحد كل شخصيات الحياة الثقافية فى « سالزبورج » ، لتشاهد العرض الأول باللغة الألمانية لمسرحية « بجماليون » « لتوفيق الحكيم » ، فى القاعة الكبرى « للموزارتيوم » وقد امتلأت بالجمهور . وموضوع المسرحية عميق ... موضوع يمس الحد الفاصل بين ماهو إلهى وماهو إنسانى . وقد أخرجه الدكتور « جيزاريش » فابرز ما فى داخل الفنان العبقرى من مأساة فى كفاحه الخالد الذى لا عزاء فيه ، وقام « هانز هابنزولر » بدور « أپولون » فأظهر ما فيـــه من علو ممزوج بالسخرية ، وقامت « هيرتا فيبر » بدور « فينوس » فأظهرت مافيه من نضج وتجربة ... أما الملابس والمناظر فتذكر بالثناء « لجوستاف فارجو » ...

« سالزبورجر ناشرشتن فى ٨ ديسمبر سنة ١٩٥٤ م

« بجماليون » لتوفيق الحكيم مسرحية فى أربعة فصول ، تدور حول حياة الفنان الإغريقى الذى أبدع تمثالا وهبت له الآلهة الحياة ... وسحر مسرحية « الحكيم » لدى جمهور أوروبا يقوم بالأخص على ذلك التقابل بين العالمين ... العالم الإنسانى والعالم الإلهى ! ... وقد وضع « جيزاريش » هذه المسرحية فى إطار من الإخراج الدقيق . يجنب فيه كل ما يمس نواحى الميلودرام » ، وأدخل الحركة المسرحية فى مجال مرح يكاد فى بعض الأحيان يمس حدود « الكوميديا » . وقد فهم ممثلوه أغراضه ومراميه فلبوا ونجحوا وكان المؤلف حاضرا بشخصه فاحتفل به احتفالا حارا ! ! ...

مسرح توفيق الحكيم الفلسفى

للناقد الفرنسى جورج ألبير آستر

« عن مجلة « كريتيك » العدد ٦٦ — باريس ١٩٥٢ »

بدأ الغرب يكتشف الأدب الجديد الذى انبثق من النهضة العربية الإسلامية . وأجمل ما يراه من هذا الأدب هو من غير ريب نزعته الفريدة نحو الوحدة الشاملة ، والتركيب التام ... إن الجهد الصادق الذى يبذله الشرق ، على هدى من موازينه وتقاليده الموروثة لكى يساير ركب التاريخ ، وحاجته الملحة إلى عـــدم

إنكاره أو الخضوع لمشيئته كل الخضوع — كما كان شأنه معه من قبل - نقول: إن هذا كله لم يكن ليخنق الأصداء التى تتردد عن تراثه القديم ، هذا التراث الذى نما على أرضه منذ آلاف السنين . إن نهضة الشرق الجديدة تتقدم مدفوعة بروح مفعمة بالإخلاص واليقين ، وإن جاهدت وتعثرت فى بعض الأحيان...

و « توفيق الحكيم » الذى لم يتسن للقارة الأوروبية أن تعرف أفكاره حق المعرفة ، ينبغى أن ينظر إليه من هذه الزاوية . إنه بغير ريب المفكر المجدد ، الذى يوشك أن يكون الوحيد فى مضماره . هذا الفنان المسرحى قد أضاف إلى الأدب العربى صورة جديدة من صور الفن . ذلك لأن المسرح « الفلسفى » يكاد أن يكون مجهولا من الحضارة الإسلامية قبل « توفيق الحكيم » . وليس هنالك ما يشبهه فى هذا الباب إلا المسرح المعروف بالنو (المسرح اليابانى القديم) . والمقامات التى عرفت فى الأدب العربى والفارسى قد سمت بالحريرى ، فى القرن الحادى عشر إلى المجد ، إلا أنها لا تتصل إلا من بعيد بما نسميه اليوم « بالتمثيليات المسرحية » . والأراجوز ، وهو فى صميمه تركى النشأة ، لا يعدو أن يكون مسرحا من الظلال والأشباح .

البلاد الفارسية وحدها تستطيع أن تفخر (على تراث الأدب

العربى على الأقل) بمـا لديها من مقطوعات « التازياز » التى ترجع إلى عهد يعد قريبا ، والتى تشبه أن تـكون لونا من الأسرار الصوفية الغامضة ، تدور حول مصرع الإمام الحسين — هذا إلى أن هذه المقطوعات قد اختفت فى أوائل القرن الحالى عندما انهار كيان العصور الوسطى ، الذى طبع بلاد فارس بطابعه حتى عهد قريب ، واتصل المسرح الذى يتوفر المؤلفون الإيرانيون على خلقه بالأدب العربى حينا ، وبحكايات من التراث القومى لم تزل تمثل على المسارح الإيرانية منذ القرن التاسع عشر حينا آخر .

إن الدراما الحقة ، والتراجيديا على وجه الخصوص ، تبدو على جانب من التعارض مع روح العقيدة الإسلامية . ذلك إنهـا تقتضى وجود مبدأ ثورى على نحو من الأنحاء ، كما أنها تبتعد عن العقيدة الدينية بعدا ما . وحين يصطدم الإنسان بالقدر يتجدد فى نفسه الأمل بأنه ربما سنحت فرصة لتغيير قدر محتوم ، بفعل من أفعال الإرادة الحرة (التراجيديا الحقة تنبع من الدين ، ولـكنها لا تزدهر حتى توضع المقدسات نفسها موضع الشك والسؤال : وهناك أمثلة عديدة على صدق هـذا القول ، فلن ندرك حقيقة « هاملت » إذا جردناه من أزمة الوجود الإنسانى ، ولم تـكن « فيدر » لتوجد لو لم يشتعل القلق فى قلب راسين) . جوهر الدين الإسلامى

فى التسليم والاستسلام . والنزعة الإنسانية العميقة التى ينطوى عليها تقابلها نزعة الرضا والإذعان لمشيئة عالية . ومن ثم لم يتلاءم العنصر التراجيدى مع روح هذه العقيدة .

- يضاف إلى هذا عقبة قائمة تتمثل فى اللغة العربية نفسها : فهى تنقسم إلى لغة للأدب وأخرى للكلام تختلفان فيما بينهما اختلافا شديدا . وقد ظلت الآداب العربية قرونا طويلة وقفا على خاصة « العلماء » ، تتنكر لكل شكل من أشكال الفن يراد به الاتصال بالجماهير اتصالا مباشرا .

الأزمة التى يمر بها العالم الإسلامى اليوم تسمح بقيام مسرح أصيل ، تضطرب على خشبته ألوان الصراع والقلق التى تصاحب نهضته الحاضرة ، وتوافق وعيه الجديد . وإلى جانب التأثير الغربى المحتوم عليه ، هناك تأثير من نوع آخر ، مستمد من الفكر الإسلامى نفسه ، فى صوره الجريئة النبيلة . وليس يخلو من مغزى أن نجد الكتاب المصريين المحدثين يولون وجوههم نحو أرض اليونان ، ربما لأنهم يريدون أن يسيروا فى الطريق الشاق الذى قطعته حضارة البحر الأبيض المتوسط ، حضارة التركيب والوحدة الشاملة ، فيجددوا عهدا جعلت فيه بلاد البطالمة من نفسها حارسا أمينا على تراث الإغريق ، وصانته من الاندثار . ويذكرنا بعهد ازدهرت فيه حضارة الاسلام يوم أن نهلت من ينابيع الثقافة الإغريقية .

وثمة عامل ثالث لا يمكن أن نغفله من حسابنا : فعلى شاطىء النيل شعب قد طالما ذاق الظلم والهوان . تتدفق من بين شفتيه ثروة خصبة من الأساطير والنوادر والحكايات، وتمتزج بوجدانه الحى وشعوره الرقيق.

بهذه النظرة يمكننا أن نقدر قيمة مسرحيات مثل «أهل الكهف»، و«شهرزاد»، و«سليمان الحكيم» . فهى إلى جانب قيمتها الجمالية الخالصة تقدم لنا تفسيرا دراميا للأزمات العميقة التى يعانيها العالم الإسلامى اليوم وللاحلام التى تراود مصر من قديم الزمان . إنها تمزج فى وحدة مبهمة بعض الشئ ، بين عوالم متمايزة، فتؤلف بين المقدسات والمحرمات، وتجمع بين ما يملكه الشعب وبين ما تستأثر به خاصة المثقفين .

ترجع المسرحيات الأولى التى كتبها توفيق الحكيم إلى ما يقرب من نحو ثلاثين عاما مضت . وقد وضع قبل الحرب الأخيرة رواية طويلة جعل موضوعها البعث الجديد فى مصر وأسماها «عودة الروح». وأما أعماله المسرحية التى نشر جانب كبير منها فى اللغة الفرنسية فهى تقوم على نظرة رحيبة الأفق للنهضة الفنية فى البلاد العربية . وليس هذا وحده هو ما يلفت النظر فى هذه المسرحيات الفلسفية . فتوفيق الحكيم يرى أن النهضة واحدة من حيث اللسان العربى ، متعددة من حيث استعدادات كل شعب ومواهبه، هذه النهضة يجب أن تعبر عن الأهداف الجديدة للأمة ، كما يجب أن تترجم عن

الأحلام التى داعبت روحها آلافا من السنين ، حتى صبغت كيانها الفكرى بصبغة مميزة ، وطبعت شخصيتها بطابع فريد . ويعرض كاتبنا لوجهة نظره فى كتابه « تحت شمس الفكر » حيث يقول : « من هذا النيل خرجت أساطير البعث . وفى هذه الأرض الجميلة الدائمة الخصب نشأت فكرة الخلود وقتال « العدم » تشبثا بهذه الأرض المحبوبة التى لم تخلق الآلهة جنة سواها ... »

ألم يكن من هم هذه البلاد أن تكافح كفاحا لامتناهيا ضد الزمان والمكان وأن تدخل فى معارك هائلة — وأن تكن غير مجدية — لتنتصر على كل الحدود والقيود ؟ !... أليس هذا ما فعلته فى عهد الفراعنة الذين بنوا الأهرام ، وتشهد أجسادهم الباقية بشوقهم الملتهب إلى الخلود ؟ !

ألا نستطيع إذن أن نرسم فى أذهاننا صورة مصرية خالصة للمأساة (التراجيديا) وأن نتمثل الدراما التى تعبر عن هذا الصراع القاسى بين الإنسان من ناحية، وبين الزمان والمكان من ناحية أخرى؟ ألا تترجم عن هذا الجهد الذى لا يهدأ ولا يستريح ، على نحو ما تصورت يونان القديمة تلك اللعبة الجامعة بين الآلهة وبين المخلوقات.

الحق أن ذلك من شأنه أن يؤدى بنا إلى مشكلة رئيسية : فمثل هذا الصراع مع الزمان يتخذ بسهولة صورة الإنكار

للتاريخ ، كما يصبح إغراء خطرا بالانطلاق والخلاص ، وبالحياة في ظل وجود عالم تسيطر عليه مطالب وحاجات ملحة — وهكذا ينبثق عنصر المأساة انبثاقا ذاتيا . وكان من ذلك أيضا — ولم تغب هذه النقطة عن بال كاتبنا — محاولة الربط بين الأدب وبين حياة الشعب حيث يجعل من الأسطورة — لا البلاغة — مصدر وحيه وإلهامه ، ويتيح الفرصة للمقدسات السماوية لكى تواجه ألوانا من المحرمات مواجهة واقعية مباشرة .

هكذا وجدناه يعنى عناية بالغة بقصص « ألف ليلة وليلة » ، وبالقرآن ، ويعدهما مصدرين خطيرين للإلهام الفنى ... ولقد تأثر فن « توفيق الحكيم » فى مراحل تطورة الأولى بمؤثرات عديدة . من رمزية « مترلنك » التى انقضى عهدها إلى « الدراما البرجوازية » . وهذا ما جعلنا نكشف عن مذهبه الأصيل فى ثلاثة أو أربعة من مؤلفاته الخالدة : شهرزاد ، أهل الكهف ، سليمان الحكيم . كما دفعنا هذا أيضا إلى النظر فى مسرحيتين تنفردان بطابع خاص له هما : « أوديب » و « بجماليون » .

من هذه الناحية نرى صاحب « المسرح العربى » قديرا فى إنشائه لمسرحيات تعتمد على الحركة الداخلية ، وترتبط ارتباطا وثيقا بالقصة التى نبعت منها : وما الأسطورة هاهنا إلا الرداء

الخارجى ، فتوفيق الحكيم » يبحث فى طبيعة الحياة ، ويتفكر فى ما هية الوجود ، على نحو لم يسبقه إليه أدب قديم أوحديث .

وتسنح المناسبة الطيبة « لتوفيق الحكيم » عندما يردد حيرة الشرق فى سؤاله الخالد : هل ينبغى أن نرى الوجود كأنه حلم من الأحلام؟... وكيف يتسنى لنا الخلاص فى هذه الحالة؟.. وماعسى أن تجدى فى عصرنا الراهن حرية الحالمين ، وهى تحمل فى تضاعيفها الغربة والخطورة ، والمفارقة ؟ ! ... وما قيمتها بالقياس إلى الواقع والتاريخ ؟ ! ...

الهدف الأساسى الذى يشغل أصحاب الكهف ، ويعصر قلب « شهريار » ، هو التحرر من سلطان الزمان ، والانطلاق من سجن المكان ... هم يتمنون لو استطاعوا أن يخلصوا من طغيان أفعالهم، يعذبهم الشوق إلى الحياة فى ظل عالم لا أثر للظلم فيه ؛ بل إنهم يمقتون فكرة الحد « نفسها » ويتوقون إلى لقاء الموجود الكامل الذى لا يحده قيد بعيدا عن أسوار هذا العالم وضروراته.

لا أثر للتصوف فى هذا الإتجاه : إن أبطال « توفيق الحكيم » يرتابون فى القوة الغيبية أبلغ الريب، وليس من همهم أن يفنوا فى مبدأ روحانى علوى ، فلايزال الإنسان يواجه مصيره الغامض القاسى ، فلا يجنى من هذه المخاطر غير حال عجيبة من التناقض تجعله معلقا بين السماء والأرض ، ولا تهبه الحرية إلا إذا تكلف نوعا من

اللامبالاة،فى جو من السخرية المرة التى تقضى عليه بالموت والضياع ...

هكذا نجد أنفسنا إزاء مسرح تدور مآسيه فى دائرة من العذاب الفظيع ، وتسعى شخصياته إلى مثل بعيدة المنال .

ليس ينبغى أن نضل الطريق على أى حال : فالصراع الناشب بين « الوجود الأسطورى » و « الوجود التاريخى » لا يسيطر على زمام هذا المسرح إلا لأنه يعبر عن الأزمة التى تسود العالم العربى والإسلامى فى القرن العشرين . « توفيق الحكيم » يعيش فى صميم المشكلة التى يكابدها الشرق الحديث : فالمسرح لديه يدور حول مصير الفكر الذى يريد أن يكون إنسانيا ...

والحق أن هذه المسرحيات تنطوى أخيرا على ميزة ذات دلالة هامة . إن كاتبها تمتد سخريته فلا ترحم أحدا — إنها لتجرى على لسان شخصياته : عذبة حينا ، مرة فى أغلب الأحيان ؛ تتهكم بنفسها على طموحها ، وعلوها واعتدادها بنفسها .

من هذه الناحية يعد توفيق الحكيم شاهدا على الاتجاه إلى التخلى عن الحياة الأسطورية والسعى نحو الحياة الواقعية والتاريخية (بينما يتجلى عكس هذا الاتجاه لدى الكثير من كتاب الغرب) وهو فى رأينا يعبر أصدق تعبير عن الوعى المضطرم فى كيان مصر الناهضة وعن موقفها فى العصر الحديث بين الأعاصير التى تثور من حولها

وتوشك أن تمزقها، واختيارها السير فى موكب الزمن والتاريخ، معرضة عن الحياة بين أحلام الخرافة والوهم القاتل، ولعل العالم العربى قد أدرك الصواب حين اهتم بهذه المسرحيات، وتبين خطرها العظيم بالنسبة إليه، فقد وجدفيها مرآة صادقة للأزمات العميقة التى تضطرب فى وجدانه، والآمال العزيزة التى تخالج قلبه.

لقد كان الهدف الحقيقى فى «أهل الكهف» هو إبراز المشكلة الأساسية: «مشكلة الزمن».

ولاشك أن هؤلاء الفتية الذى أووا إلى الكهف قد تحرروا رغما عنهم من سلطان الزمان وسطوة التاريخ. إنهم يحاولون أن يتحينوا هذه الفرصة التى أتاحها لهم القدر، أو الأسطورة إن شئنا (وهى فرصتهم إلى الخلود). إنهم يستيقظون من نومهم بعد ثلاثة قرون فيحاولون أن يستهينوا بقدرة الزمان، وأن يروا فيه شيئا عقيما، ضائعا. بل يذهبون إلى إنكار وجوده البتة. وهكذا نجدهم يدافعون بسخرية مرة عن الفكر السرمدى، والخلود الأسطورى، اللذين تنفيهما حقائق الواقع.

ماقيمة الحقائق العقلية التى يتذرع بها مرنوش؟!... وماجدوى الصرخات اليائسة التى يطلقها ميشلينا، هذا العاشق الخالد لبريسكا الفانية؟... وهل يغنى وجود محبوبة جديدة تحمل اسم جدتها التى

ماتت منذ ثلاثة قرون ، كما تحمل ملامح وجهها ؟ !… هل يغنى عن الواقع شيئا ؟ ! …إن« يمليخا» وهو الراعى الساذج البرئ ،لاتخدعه انفعالات الشعور عن الواقع الملموس : « إنا أشقياء … أشقياء نحن ثلاثتنا وقطمير معنا . لا أمل لنا فى الحياة إلا فى الكهف . »

«فلنعد إلى الكهف … هلم يا «مرنوش» ؟!… فلنذهب إلى عالمنا؟!…»

ثم يقتنع العقل بدوره فى شخص مرنوش المفكر حيث يقول: « إن مجرد الحياة لاقيمة لها… إن الحياة المطلقة المجردة عن كل ماض وعن كل صلة وعن كل سبب لهى أقل من العدم » .

وهكذا يقضى على الوهم الذى طالما داعب خيال الشرق ، وزين له أنه يمكن أن يحيا حياة كأنها الأسطورة السرمدية ، حياة خارج حدود الزمان . ثم يأتى دور التحول الأخير فى نفس العاشق المسكين ميشلينا… إن الأميرة بريسكا ، التى تشبه أخرى أحبها قبل أن يعانقه النوم الطويل ، لا يمكن مع ذلك أن تشبهها كل الشبه . فسرعان ماينكشف له وجه الضلال فى حبه القديم الجديد . ها هنا حكم صادر بالموت على الفكرة الميتافيزيقية الكبرى التى عرفت عن الشرق العربى الإسلامى ، وعن نزعته التى تميل به إلى إنكار الجزئيات ، وشرعته التقليدية التى تجعله ينظر إلى الظواهر الواقعية وكأنها حلم من الأحلام ، ويعد الحقيقة الخالدة لمبدإ غيبى غير منظور وكأنها

الحقيقة الوحيدة الجديرة بهذا الأسم . فإذا نظرنا من الزاوية الجديدة التى يقدمها لنا توفيق الحكيم وجدنا أنه لم يبق لنا غير عالم التاريخ، وغير الزمن الذى تحدده الولادة الأولى والموت الأخير من طرفيه لن تستطيع الأسطورة أن تقف أمام سلطان الزمن والتاريخ : « أى الواقع »، وإن حسبت أنها انتصرت عليه فقد خدعت نفسها بالباطل . ولا أمل للإنسانية إن أفلتت من أسر الزمان ... وسوف يحكم على مصر بالفناء ، أو تقيض لها الحياة تبعا لموقفها من التاريخ ! ...

وجملة القول : إن « أهـــل الكهف » تقرب بمعطياتها من موضوع من أكبر موضوعات الفكر الإسلامى . وتتصل بهذه اللعبة الشعبية ، ونقصد بها الأراجوز التركى ، التى هى لعبة الظل مع الحياة — إنها تحطم أمالا شاعرية كثيرة . وإن القارىء يحكم فى نهاية المأســاة بضآله الفرصة التى بقيت لهؤلاء الفتية الذين أغلقوا باب الكهف عليهم فماتوا ، وهم يواجهون هــــذا السؤال القاسى : هل يتيح لهم القدر أن يبعثوا من جديد ، وأن يعيشوا فى ظل الديمومة الأسطورية التى خبروها من قبل ؟ ! ... ويأمر الملك — بعد أن ينتهى كل شىء — بأن تدفن معهم المعاول التى تتيح لهم إذا ما بعثوا من جديد أن يعودوا إلى عالم الأحياء . ولكن هذا لا يغير شيئا من الحقيقة : لقد استسلموا للموت فى هذه المرة بمشيئتهم ،

وطرحوا عنهم وهم الخلود . وإذا كانت « بريسكا » الثانية قد أخذت بسحر عالمهم المجهول ، فآثرت إن تقبر حية معهم ، فإنها قد فعلت ذلك مجردة من كل أمل فى العودة أو رجاء . وفى نفس الوقت يسدل الستار على عهد القداسة ، ولا تبقى بقية للشك فى زواله : —

بريسكا : ومهمة أخرى يا « غلياس » . إذا علمت الناس قصتى وتاريخى فاذكر لهم كما أوصيتك …

غالياس : « وهويهم بالخروج » إنك قديسة ؟ …

بريسكا : كلا … كلا … أيها الأحمق الطيب ليس هذا ما أوصيتك

غالياس : إنك امرأة أحبت …

بريسكا : نعم ، وكفى ! « يخرج « غالياس » وتبقى وحدها ويغلق الكهف عليها وعلى الموتى » .

* * *

نفس هذه الموضوعات نجدها مبثوثة فى « شهرزاد » ترجمت هذه المسرحية إلى الفرنسية فى عام ١٩٣٦ فسحرت بشاعريتها وأسلوبها الغنائى « جورج ليكونت » (١) و « لونى بو » (٢) وربما أخذا بهذا الجمال الشاعرى عن البحث فى دلالتها الحقيقية ، وأدراك قيمتها العالية .

---

١ — عضو الأكاديمية الفرنسية .

٢ — مؤسس مسرح « الاوفر » بباريس « المترجم : عبد الغفار مكاوى » .

ذلك أن ما يبقى فى القصة القديمة مظهرا عرضيا أو إطارا خارجيا يصبح عند « توفيق الحكيم » مادة العمل الفنى وجوهر الحقيقة نفسها : فهنا نجد التعارض الحاد بين «شهريار» و شهر زاد » ، والصراع الدائر بين « الوجود اللامتناهى » الذى يشيع فى جو الأسطورة وبين مطالب الحياة المحدودة وضرورات الواقع القاسية .

إن « شهريار » الأمير الذى لا يرتوى ظمؤه، ولا ينتهى طموحه ، يلوح لأعيننا كأنه «فاوست» وقد تلفح فى مسوح شرقية ، و « شهر زاد » الراوية تخطر أمامنا كأنها سر الأزل : إنها هى الأسطورة ، هى الانطلاق من أسر الزمان ، وصورتها تقترب فى أذهاننا من رمز القداسة الخالدة : « إيزيس » إلهة مصر القديمة التى ترفرف روحها القلقة على الدوام : « أنا كل ما كان ... كل ما يكون ... كل ما سيكون ... قناعى لم يكشفه بعد إنسان ... »

يبدو لنا أننا لا نخرج عن مفهوم هذه القصة العجيبة حين نجد فيها تعارضا أساسيا بين « الوجود الميتافيزيقى » وبين « الوجود الواقعى » ، يكاد يستعصى على الحل .

الحق أن شهريار يحيا حياة ميتافيزقية بحتة، لكن لاية غاية ؟ إنه لم يعد يستطيع أن يعاود حياته البشرية — «إيزيس» و«شهر زاد» يحتفظان بسر أبى الهول الخالد : الخلاف الغامض بين الأسطورة والحياة .

والإنسان بدوره لا يستطيع أن يهزم الزمن إلا على حساب حياته نفسها .

« لا فائدة من نزال الزمن » وحين يهتف مارنوش قائلا : لأننا « أحلام ... نحن أحلام الزمن » يكاد شهريار أن يردد صداه : « إن الزمان يجثم على صدرى » . ويهيم الملك من بلد إلى بلد ، مأخوذا بسحر اللانهاية التى تنعكس فى عينى « شهر زاد » ، انه لا يجنى من بحثه وتطوافه فى الآفاق إلا فقدان ذاته ، وضياع الوجود الحق الذى جاب الأفق بحثا عنه : « أو لست كالماء يا شهر زاد ؟... سجينادائما كالماء ؟ ... نعم ، ما أنا إلا ماء ... هل لى وجود حقيقى خارج ما يحتوى جسدى من زمان ومكان ! ... »

ومع ذلك « فسرعان ما اتخذت حياتى شكل ما احتوى جسدى من زمان ومكان » . ونعود فنقول : إنه من الخطأ أن ينظر النقاد ها هنا فلا يجدوا إلا التعبير عن حنين غامض « رومانتيكى » إلى الأوطان : إن مقوماتنا الذهنية تقف عاجزة (أو هى كذلك حتى الآن) فى كل ما يتصل بكتاب الشرق النابغين (وأشد ما نخافه أن يحاول امرؤ التقريب بين أعمالهم وبين فلسفتنا الوجودية الحديثة ، تقريبا من شأنه أن يغفل التاريخ من حسابه » فهنا تصبح المشكلة التى تقابلنا هى قيمة « الواقع » نفسه — كما يحلو للكتاب السرياليين فى الغرب أن يقولوا — كما واجهته أنفس

حاولت أن تتسامى على الواقع منذ آلاف السنين ...

ومن أبلغ الأمور دلالة على صدق ما نقول أن هذه المشكلة منبثقة فى جميع الأعمال الدرامية التى دبجها يراع كاتبنا (وشخصياته تطوف حولها على الدوام.

وأهم ما هنالك هو إبراز هذا الشعور بالفقدان الذى يعانيه أبطال توفيق الحكيم ، إذ يستولى عليهم القلق الجارف نحو المطلق واللاّمحدود (فإلى جانب شهريار ، وهو شهيد حلم لا عمر له بعثه الشرق فى خياله ، نرى قمر الذى يظل أبدا المخلوق البسيط ، ويتصرف فى نطاق الشهوات الجزئية ، ويحب شهر زاد كما يحبها سائر الناس ، وعلى مقتضى القانون البشرى العام ، بينما العبد الأسود تتجسد فيه الصور اللاّمعقولة من الحياة ...)

ليس إذن من قبيل الصدف أن نجد الصراع ينتهى إلى التجربة المحتومة : تجربة شهريار لا يحرك ساكنا حين يرى الملكة تخونه خيانة مفضوحة مع العبد الأسود — « شهريار » الذى ارتفع عن كل شهوة أرضية ، وتجاوز حدود الغيرة التى جعلته يوما ما رجلا كسائر الرجال . « شهريار » الذى حكم عليه أن ينتهى إلى حيث قاده السراب الخادع ، إلى القرار السحيق الذى لا نجاة منه . ولم لا ؟ ! وهذه « شهر زاد » التى ألحت عليه بالبرهان قد أصبحت عاجزة عن أن تعيده إلى الأرض : «شهريار ! ... أنت رجل هالك ...»

جملة الرأى أن «توفيق الحكيم» يقدم لنا مصر الجديدة، التى تختلف عن التى تمثلها أسطورة «إيزيس»، والتى كانت تسير معصوبة العينين. يقدم لنا مصر التى تطرق باب الواقع والتاريخ، وتقف موقف الاختيار الحاسم لمصيرها. ويبدو أنها منذ ذلك الحين قد عرفت دورها التاريخى فى موكب الحضارة.

* * *

وعلى الرغم مما يشوب الترجمة من جمود فى بعض أجزائها، فإن مسرحيات مثل «بجماليون»، و«سليمان الحكيم»، و«الملك أوديب»، تقدم لنا نفس المشكلات التى رأيناها فى زميلاتها، كما تتمثل فيها ألوان الصراع والتناقض بعينها. وهذا المسرح كله يعرض لنا نماذج من الوجود تتحدد، لا بالنسبة إلى «الخير» و«الشر»، بل بالقياس إلى «الواقع» و«الحلم». وهل تهم الصورة التى يتخذها الحلم فى هذا المجال؟!

وفى ظلال الوعى الذى يغمر بلاد الشرق الإسلامى فى هذه الأيام، نجدها تطرح عنها أسباب الطموح التقليدى التى جعلت الروح الشرقى يسعى نحو المطلق: كما يتمثل فى الحكمة الكاملة عند الملك سليمان، وفى الفن المطلق عند بجماليون، وفى الحقيقة الرهيبة لدى «أوديب الملك». يمكن القول بأن كل شئ يجرى هنا فى عالم

لا تزال مشكلة التعارض بين المقدسات والمحرمات قائمة فيه .

وفى مفترق الطرق نرى « توفيق الحكيم » ، الكاتب المسرحى المعاصر ، شاهد صدق على هـــذا الشعور الذى يجيش بالأزمات والمتناقضات فى ضمير الشرق الإسلامى . لدى هذا الكاتب تتم معجزة التحول العظيم فى ثوب مسرحى . إنه التحول المحتوم من مجال المقدسات إلى مجال إنسانى محض ، ومن عالم يسرى فيه الروح الغيبى وتسوده أحلام ما وراء الطبيعة إلى آخر يساير موكب التاريخ . إنه تحول تجاه الواقع ... الواقع الحى .

توفيق الحكيم

بقلم : كلادفيا أود ـ فاسيلفيا

« عن مجلة « الأدب السوفييتى » موسكو ـ عدد فبراير ١٩٥٧

بدأ « توفيق الحكيم » يظهر كأحد كتاب مصر الكبار منذ العقد الثالث لهذا القرن ، وهو ينتمى إلى تلك الفئة من الكتاب العرب التى أنتجت أدبها بلغتين ، فهو قد تلقى تعليمه العـــالى فى فرنسا ، وقضى فيها سنوات عديدة ، وبدأ يكتب بالعربية والفرنسية معا ، وبعض إنتاجه العربى مترجم عن الأصل الفرنسى (١) .

وقد وصف بعض النقاد توفيق الحكيم بأنه كاتب متارجح

---

١ — مسرحية « أمام شباك التذاكر » .

اشارة إلى تردده وتدقيقه فى البحث عن الحلول للمشكلات ذات الأهمية الاجتماعية . وقد ذهب فى بحثه هذا إلى آفاق بعيدة ، محاولا أن يصل إلى كنه مهمة الكاتب ، وأن يؤكد وظيفة الفن فى الحياة العصرية، ومعالجا قضية تشكيل نظرة معاصرية فى اتجاه تقدمى، ومؤكدا فكرة الاستقلال الوطنى . وإن بعض مؤلفاته « كعودة الروح » و « يوميات نائب فى الأرياف » لتستحق مكانا عاليا فى الأدب العالمى الحديث .

و« عودة الروح » تعتبر إلى حد ما سيرة ذاتية فنحن نجد البطل فيها قد ولد فى مدينة دمنهور ، أبوه فلاح ميسور الحال يشغل منصبا بارزا فى المدينة ، وأمه منحدرة من أصل تركى ، تكره الفلاحين وتحاول دائما أن تثبت تفوقها عليهم ، على حين كان « والد » توفيق » يبدى إزاءهم نوعا من العطف، وكان ذلك سببا للنزاع العائلى . أما الفتى فقد أحب الفلاحين ، وقد شهد عملهم الشاق ، وعرف حرمانهم ، وأدرك ما فى موقف أمه منهم من عدم إنصاف ، فأخذ ينسلخ عنها رويدا رويدا . وكانت طفولته شقية . وذكرياته السعيدة عن تلك الفترة من حياته مرتبطة بفرقة من الممثلين المتجولين الذين كانوا يزورون داره بين الحين والحين . لقد كانت طلاقة الممثلين وأغانيهم حبيبة إلى الفتى . وربما كان ذلك أصل اهتمامه بالفن .

وفيما أقبل من الأيام : أرسل أهل الفتى ابنهم إلى القاهرة ليتلقى العلم ، فأقام مع أقارب له فى أسرة محدودة الموارد ، ومع ذلك فإن تلك الحياة التى كانت مزيجا من العمل والعوز فى بيتهم ، كانت أحب إليه من الحياة فى بيت أبيه .

وقد بدأ الفتى محاولاته فى الأدب وهو ما يزال بعد فى المدرسة، وقد وصف تلك الأيام فى كتابه « زهرة العمر » وهى قصة أخرى يغلب عليها طابع السيرة الذاتية ، وقد كتبها بشكل رسائل وضمنها آراءه فى الفن والأدب ، وكشف فيها على الأخص الطريق الذى سلكه نحو التأليف . لقد كانت محاولاته الأولى تمثيليات وضعت لأولئك الممثلين المتجولين . فهو يكتب عن تلك الفترة من حياته :

« كانت بدايتى الفنية بين الممثلين ، أو أولئك الذين يسمونهم عندنا « المشخصاتية » والحق أنهم فى مصر ليسوا بعد من الطوائف المحترمة . لقد كان ملحن رواياتى « كامل الخلعى » يجلس معى على قارعة الطريق يدندن وهو عارى القدمين إلا من قبقاب خشبى ... تلك كانت بدايتى الفنية والأدبية (١) .

---

١ — لقد عدنا من الاستشهادات المأخوذة عن « توفيق الحكيم » إلى النص العربى كما ورد فى مؤلفاته ، وهو قد يختلف بعض الشيء عن النص الإنجليزى الذى ترجمنا عنه هذا المقال: « مجلة الشرق » .

ولم يرض ذلك الاهتمام بالأدب والفن والدى الفتى اللذين أرادا له أن يدرس الحقوق . وقد أشار عليهما بعض الأصدقاء فأرسلوه ليتلقى علومه فى فرنسا ، مؤملين أنه عندما يحاط بجو جديد ، ويهتم بمسائل جديدة ، قد يسلو بها عن الفن وينصرف إلى ما تمناه له والده من حياة قانونية قضائية محترمة، ولكن خاب ظنهم فتوفيق لم يهتم بالقانون ، وقد كتب لأحد أصدقائه يقول : « إنى فى عرف القانون محام . ولكن أى محام؟ ! ... لقد كانت فجيعة لأبى المسكين أيام أن كان يسمع ويرى أنى أنسى صفتى كمحام ، وانحشر فى زمرة الممثلين » .

وكان « توفيق الحكيم » فى الواقع قد بدأ يكتب مسرحيات بالفرنسية ، وكان بعضها قد بدأ يخرج على المسارح الفرنسية.

وعندما عاد « الحكيم » إلى مصر ، عين نائبا فى الأرياف ، وفى منصبه هذا ـ وهو ذو الملاحظة الدقيقة لتفاصيل حياة شعبه ـ أتيح له أن يجمع ثروة من المواد لكتاباته المقبلة ، وقد نقل بعد ذلك إلى القاهرة حيث اشتغل فى وزارة المعارف وتفرغ فى السنوات الأخيرة للإنتاج الأدبى .

ولم يكن التطور الأدبى لكاتبنا تطورا بسيطا ، فهو قد وصل إلى أوروبا فى السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الأولى ، فى

الفترة التى احتدم فيها الصراع فى مجالى الأدب والفن بين اتجاهات الواقعية والاتجاهات الشكلية المتعـــددة . وكانت تلك سنوات التكوين بالنسبة لـكاتبنا . ولم يكن موقفه فى البداية واضحا تماما . فقد شعر بنفسه منجذبا نحو التيارات الحديثة للواقعيين الفرنسيين لـكنه فى الوقت ذاته كان يرى فى اتجاهات « المودرنزم » منبعـا للخلق الجديد فى الفن وقد كتب فى « زهرة العمر » عن تفتيشه وبحثه أثناء اقامته فى باريس : « أنا لاأستطيع أن أقول مع الثائرين فليسقط « القديم » لأن هذا القديم أيضا جديد على فأنا مع أولئك وهـؤلاء » ...

وتابع « توفيق » تفتيشه فدرس الرسم والموسيقى ، محاولا أن يعثر على ارتباطاتهما الداخلية بالأدب . وقد كتب عن زياراته لمتحف اللوفر يقول : « كل لوحة فى الحقيقة ليست إلاقصة تمثيلية داخل إطار ، لا داخل مسرح ، تقوم فيها الألوان مقام الحوار . إنى لأكاد أصغى إلى أحاديث الأبطال وهم على الموائد فى أفراح (قانا) لوحة « فيرونيز » ، وأكاد أسمع ضجيج الحاضرين وصياح الشاربين ورنين الـكئوس وخرير النبيذ يفرغونه من دن إلى دن . إن طريقة إبراز كل هذه الحياة بالريشة تقرب من طريقة إبرازها بالقـلم . إن أساس العمل واحـد فيهما : الملاحظة والإحساس ثم

التعبير بالرسم والتلوين ؛ بل إن الروح أحيانا ليتشابه ».

وإننا لنشعر فى مؤلفات الكاتب فى تلك الفترة بميل نحو الواقعية ، ونجد صورة متعددة الألوان للحياة نابضة ، ولكن ملاحظته للحياة كانت لاتزال تصدر ، لا عن العقل ؛ بل عن المشاعر ، كما هو الحال عند التأثريين .

وفى سنة ١٩٣٣ م أصدر رواية « عودة الروح » التى كان قد ألفها فى أواخر العقد الثالث من هذا القرن عندما بدأ يتجلى فى الأدب المصرى تيار جديد . وكانت جده هذا التيار هى المصدر الذى استمد منه هذا التيار اسمه — التجديد — وكان فى واقع الأمر ، فى تلك السنوات ، تيارا واقعيا يعكس تطور الوعى الوطنى فى البلاد .

إن الرواية تصف الانبعاثة الأولى لحركة التحرر الوطنى فى مصر فى ١٩١٩ . وهو لم ير فى تلك الحركة فى عام ١٩١٩ م أن المصالح الطبقية للشعب وللبرجوازية لم تكن متطابقة .

وكان القبض — فى ٨ مارس ١٩١٩ م — على عدد من أعضاء الوفد الذى أرسل لحضور مؤتمر « فرساى » السبب المباشر فى قيام المظاهرات التى شملت مصر بأسرها فى وقت واحد . وكانت المطالب الرئيسية للوفد المصرى — وهو اللجنة التى قادت حركة ١٩١٩ — هى الاستقلال

التام لمصر وسحب القوات البريطانية ، وجلاء الانجليز عن السودان. وكان تحقيق هذا البرنامج يتيح للبرجوازية فرصة واسعة لاستغلال ثروة البلاد وشعبها . وكانت البرجوازية بحاجة إلى قائد قادر على توحيد البلاد ...

والمؤلف يعتبر هبة ١٩١٩ م بمثابة عودة روح مصر القديمة ، فهو يكتب : « لا تعجب لهذا الشعب المتماسك المتجانس المستعذب ، والمستعد للتضحية ، إذا أتى بمعجزة أخرى غير الأهرام » ...

ربما كانت «عودة الروح» أكثر المؤلفات العربية غنى بالألوان فى العقد الثالث من هذا القرن . فالمؤلف يصف فيها حياة الفلاحين، ويهاجم الظلم الاجتماعى الذى كان سائدا فى مصر فى تلك الأيام ، غير أنه يبالغ كثيرا فى دور سعد زغلول فيكتب : « وهاهى ذى مصر التى نامت قرونا تنهض على أقدامها فى يوم واحد . إنها كانت تنتظر . تنتظر ابنها المعبود رمز آلامها وآمالها المدفونة ينبعث من جديد ... وبعث هذا المعبود من صلب فلاح » . فالواقع أن المبادءة فى الكفاح ضد السلطة المحتلة كانت للشعب لا لسعد زغلول . إنه الشعب الذى عبر عن إرادته التى لا تتزعزع، والذى تحمل التضحيات التى لا آخر لها فى هبة ١٩١٩ .

وقد نشر «توفيق الحكيم» فى الفترة ذاتها مجموعة من المسرحيات

يلجأ أبطالها جميعا إلى الهرب من صعوبة الحياة .

ففى رواية « أهل الكهف » استخدم أسطورة « الشبان السبعة » الذين رقدوا فى الكهف ٣٠٠ سنة ، وعند ما استيقظوا لم يجدوا للحياة معنى ، لأن كل ما كان يربطهم بها ، من أحباء وأصدقاء ، كانوا قد ماتوا منذ زمن طويل ، فما كان منهم إلا أن عادوا إلى الكهف . وإلى اليوم لم يغفر النقاد التقدميون للمؤلف إنهاءه لروايته على هذا النحو . لأن العام الذى كتبت فيه هو عام ١٩٣٣ ، حينما كان على رأس الحكومة المصرية الحاكم الرجعى البغيض صدقى باشا . لقد رأى أبطال « أهل الكهف » دستورا ينتهك ، وسجونا تزدحم بنازليها ، واقتصاد البلاد يدمر ، والفقر ينتشر ، ومع ذلك فقد عادوا إلى كهفهم ، مقدرين أنه لا جدوى من محاولة تغيير الوضع القائم .

وشهد عام ١٩٣٧ نشر « يوميات نائب فى الأرياف » بما فيها من وصف صادق دقيق للحياة فى قرية نائية . إنها تصور الموظفين الصغار فى الأرياف بكل جهلهم وبكل آرائهم المحافظة الجامدة ، وتبين عجزهم ورفضهم لفهم حياة الفلاحين الذين يساقون أمامهم إلى المحاكم .

والحالات التى يعرضها علينا فى المحكمة حالات نموذجية . وأكثرها يتضمن لمسات كوميدية ، ولكنها فى الوقت ذاته درامية ،

كحالة شخص جريمته أنه يملك كلبا بلا رخصة ، والأشخاص الذين يغسلون ملابسهم فى مياه الترعة ، وماشابهها . والمتهمون لا يعترفون بخطئهم ، بل هم يعتبرون الغرامات التى تفرض عليهم كعقوبة من السماء . والمؤلف يعترض على القوانين المستوردة من الخارج والتى تفرض على الشعب فرضا .

وفى السنوات التالية تناولت كتابات « توفيق الحكيم » عددا من القضايا الاجتماعية الحيوية ، كالكفاح من أجل الاستقلال الوطنى، ومساوئ الظلم الاجتماعى ، وتحرير المرأة(« الرباط المقدس »، « عصا الحكيم » ، « تأملات فى السياسة ») . ومع ذلك فالكاتب لا يكشف السبب الأساسى للتناقضات الاجتماعية ، وكثيرا ما ينتهى إلى نتائج خاطئة . وكما قال أحد النقاد العرب : « إنه يضع نفسه داخل سور يحجبه عن العالم الخارجى ، عالم الشعب ، ويظل يحوم بين خيالات غامضة وأفكار عارية » .

إن نظرة « توفيق الحكيم » ليست دائما نظرة واقعية . فهو أحيانا يدافع عن « الفن للفن » ويؤكد فى أحيان أخرى أن « الفن هو الحياة نفسها » . بيد أن خدماته ، مع هذه التحفظات ، للأدب الواقعى المصرى الحديث ، معترف بها من الجميع . وهو أول من عالج فكرة الكفاح من أجل الاستقلال ، وأول من ساعد على خلق الطراز

الجديد من القصة الاجتماعية ، وأول من أدخل اللغة العامية في الأدب .

وقد كتب الكاتب التقدمي « أحمد بهاء الدين » في مقدمته لكتاب « تأملات في السياسة » : إننا نحن الكتاب الشباب نستطيع أن نتعلم منه الشيء الكثير . فقد كان « توفيق الحكيم » يكتب غير متسرع ولا متعجل ، وينفق في كتبه سنوات طويلة قبل أن ينشرها . ونحن إذا كنا نختلف معه في كثير من الآراء ، فكلنا نعترف بخدماته للأدب العربي ، وخاصة في « مجال الدراما المصرية » والرواية الواقعية .

توفيق الحكيم
وعمله الأدبي

« بقلم أ . بابا دوبولو »

يحتل « توفيق الحكيم » مركزا رئيسيا في النهضة الأدبية التي أذكت حركة الانشاء والإبداع في مصر منذ بداية القرن الحالي ، بالرغم من أنه لم يبدأ التأليف الجدي قبل سنة ١٩٢٠ م .

و « توفيق الحكيم » اليوم أكثر الكتاب نصيبا من الأحاديث ومن الإقبال على ترجمة مؤلفاته . فقد نشرت كتبه باللغات الفرنسية والانجليزية والروسية والألمانية والأسبانية والايطالية والسويدية كما مثلت مسرحياته في « لندن » و « باريس » و « باليرمو » و « استكهولم » و « سالزبورج . وأدرجت إحدى الجامعات الشهيرة في « الولايات المتحدة » كتابه « يوميات نائب في الأرياف » بين ستين كتابا اختيرت

لتمثل أهم المؤلفات العالمية التى ظهرت بين سنتى ١٩٠٠ و ١٩٥٠ م .
ولكى نستعرض إنتاجه بإيجاز فى الإطار التاريخى الذى يبينه على حقيقته ، نذكر أن الشعراء الثلاثة الكبار « شوقى و« حافظ » و « مطران » ، خلقوا الشعر العربى الحديث فى مصر - فى مطلع القرن الحالى - بإنتاجهم الرائع المتباين الألوان . وقد لحق بهم رعيل من الشعراء المجددين ، منهم « العقاد » و« المازنى » و « شكرى » .
ومن ثم فقد أخذت النهضة الشعرية تتقدم بخطا سريعة قوية .

على أن النثر لم يحظ - فى البداية - بالتقاء عبقريات ومواهب كهذه التى حظى بها الشعر ، فاقتصر على المقالات الدينية والفلسفية والتاريخية ، كتلك التى كتبها « الأفغانى » و « محمد عبده » و « لطفى السيد » ، بعد أن كان محصوراً فى نطاق ما ترجم عن الأدب القصصى والمسرحى الأجنبى - والفرنسى بوجه خاص - وعن الأدب اليونانى القديم .
ثم ظهرت فى الأدب العربى المعاصر بعد ذلك محاولات فى المجال التاريخى والمجال الشعبى ، عالجها « المنفلوطى » ، و« زيدان » و« رمزى » و « محمود تيمور » و « محمد حسين هيكل » والعقاد » و « المازنى » . وقدر لطه حسين - فى تلك الأثناء - أن يبرز بأسلوب ممتاز تحالف مع تفكير حديث ، فى سلسلة من الكتابات فى النقد والتاريخ والفلسفة ، وبعد ذلك فى قصص - مثل « الأيام » الذى كان من أبرز معالم جيله كله .

فى هذه الحركة الواسعة النطاق، ظهر إنتاج «توفيق الحكيم»، فقدر له أن يكون صاحب الشرف فى خلق أدب مسرحى نثرى حقيقى مبتدع للمرة الأولى فى تاريخ الأدب العربى، وأن يبث فى الأدب القصصى دوافع جديدة، سواء بجودة بناء القصة والأسلوب، أو بحسن اختيار الموضوعات المستمدة من واقع الحياة القومية والاجتماعية فى مصر .

* * *

ولد «توفيق الحكيم» فى «الإسكندرية» فى سنة ١٨٩٨ م، كما يستدل من تاريخ حياته، وفى سنة ١٩٠٢ م . كما تردد فى أقواله، فى أسرة مصرية من الطبقة الوسطى وكان أبوه قد انتقل إلى الريف ـ إبان الفترة التى ولد فيها ـ فلم يستطع أن يشهد مولده، إذ احتجزته أعماله القاسية التى قدر لتوفيق الحكيم أن يصفها، فيما بعد بأسلوب مفعم بالفكاهة . ومع ذلك فإن والد المؤلف لم يفكر قط فى أن يهجر وظيفته، فما لبث أن أصبح قاضيا، ثم مستشارا فى المحاكم . وليس من شك فى أنه كان يحب عمله — رغم مافيه من واجبات مستبدة غاشمة ـ حتى إنه حرص على أن يحذو ابنه حذوه، ويترسم خطاه . على أن هذا الابن أظهر، منذ صباه، أنه لم يكن أصم عن سماع نداء آخر . إذ كان قد تعرف على الأوساط الفنية فى أكثر نواحيها تواضعا، ممثلة فى ممثلى الفرق التمثيلية المتنقلة، والحواة

والمشعوذين الذين كانوا يقيمون حفلات فى المراكز ! ...

وكان لهذا الوسط البوهيمى ، وللدنيا المصطنعة بين جنباته — دنيا الثياب التنكرية ، والمناظر المسرحية و « الماكياج » ، أثر كبير على خيال الفتى اليافع ، وسحر لايقاوم ، حتى إنه كان يهمل دروسه ليجرى فى أعقاب زملائه الجدد . ولم يرق هذا لوالديه اللذين لم يكن ليخطر ببالهما إطلاقا أن هؤلاء الممثلين البائسين ، بأزيائهم الزرية ، إنما كانو يفتحون لابنهما نافذة تطل على جنة الفن ، وكانوا يذكون بين جوانحه جذوة مهنة أنتج فيه كل هذا الإنتاج الوافر من الأعمال الأدبية . والواقع أن انغماسه فى ارتياد هذا الوسط ، وفى مخالطة هؤلاء الناس ، كان يبدو من الأمور التى تشين أبناء الأسرات الطيبة فى ذلك الحين . على أن « توفيق الحكيم » استطاع أخيرا أن يظفر بإجازة القانون فى مدرسة الحقوق بالقاهرة فى سنة ١٩٢٤ م .

على أنه كان — فى تلك الأثناء — قد بدأ يكتب المسرحيات ، فوضع أولى مسرحياته فى سنة ١٩١٨ . ولم تحن سنة ١٩٢٤ حتى كانت له مسرحيات تمثل فى المسرح ، ويساهم فى إخراجها بنفسه . ولم يعد أبواه يملكان أن يمنعا هذا الإبن — الذى أصبح رجلا — من غشيان الأوساط المسرحية فى العاصمة ... الأوساط التى كانا

يريان — بلا شك — أنها ذات آثار خلقية سيئة على أمثاله .

وكانت مصر قد شرعت تجتاز مرحلة حاسمة دقيقة من تاريخها، فى السنوات الأخيرة للحرب العالمية الأولى.... مرحلة كان مقدرا لها أن تحدث تحولا بعيد المدى فى نفوس جميع شباب ذلك العهد. ذلك لأن الثورة الوطنيـة التى امتـدت من سنة ١٩١٩ م إلى سنة ١٩٢٢ م كانت جماع قرن كامل من التقدم والرقى ، امتدت فيه يد التطور الحديث إلى كل ناحية فى البلاد التى تفتحت للأفكار الحديثة التى كانت فى تفاعل وتخمر مستمرين فى أوروبا منذ الثورة الفرنسية حتى الثورة الروسية . وكانت الآراء الخاصة بالقومية وبالديموقراطية السياسية والاجتماعية قد تغلغلت فى مصر إلى حـــد بعيد بفضل الصفوة المثقفة من أبناء مصر ، الذين تعلموا فى فرنسا ...

وكان الحلفاء — الذين قدر لهم أن ينتصروا فى الحرب العالمية الأولى — قد بذلوا كل لون من الوعود القائمة على حرية الشعوب فى تقرير مصيرها ، بغية اجتذاب مصر إلى الصراع الذى كان دائرا ضد الأتراك .. وكانت مبادئ الرئيس « ولسن » الأمريكى الأربعة عشر قد أعلنت ... وكان الشعب المصرى قد فطن فى مرارة إلى نفسه وإلى مصالحه التى كانت تتعارض مع مصالح البيت المالك

والطبقة الأرستقراطية التى كانت مؤلفة من أتراك ... كان قد فطن إلى كل ذلك منذ ثورة عرابى فى سنة ١٨٨١ م . ومن ثم فقد ساهمت كل هذه العوامل ، مع نهضة الأدب والفكر من عهد «الأفغانى» و«محمد عبده» إلى عهد «مصطفى كامل» و«لطفى السيد» أستاذ الجيل الذى كان يدافع باستمرار فى صحيفته «الجريدة» عن مبادئ الحرية، وعن القومية ، وعن ضرورة التفكير على أسس علمية ومنطقية... ساهمت كل هذه العوامل فى التمهيد للثورة القومية .

ومن ناحية أخرى كان سكان المدن ، وكذلك الفلاحون ، فى مصر قد أثروا بدرجة كبيرة خلال الحرب العالمية الاولى، من جراء الارتفاع الخيالى الذى طرأ على أسعار القطن ... وكانت حركة التصنيع قد بدأت ، وظهرت حركة عمالية منذ سنة ١٨٩٩ م . وقد أدى كل هذا إلى أن يشعر سكان المدن فى مصر بقوتهم ، مما حفز الشعب على أن يعرض مطالبه على المعتمد البريطانى فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ ، ثم على مؤتمر السلام بفرساى ، وعلى كل من «كليمنصو» وويلسن ولويد جورج ، رؤساء حكومات الدول الكبرى الثلاث إذ ذاك . وقد أجابت انجلترا على ذلك بأعمال استعمارية وحشية ، ثم عمدت فى ٨ مارس سنة ١٩١٩ إلى نفى الزعيم «سعد زغلول» إلى «مالطة» ؛ مع ثلاثة من زملائه . وفى

اليوم التالى مباشرة ، قامت الثورة الوطنية ضد الاحتلال ، انتهت — بعد نفى «سعد زغلول» وبعض زملائه مرة أخرى ، إلى سيشل — بالإعتراف بمصر مملكة ، وبإعلان ٢٢ فبراير سنة ١٩٢٢ م .

* * *

فى خلال هذه الفترة الحافلة ، التى تأججت فيها شعلة القومية فى شوارع القاهرة ، وفى مصر كلها ، لاسيما فى نفوس الطلبة بالذات .. فى هذه الفترة ، بدأ « توفيق الحكيم » ينضج .

فى تلك الفترة الزاخرة بالانفعالات أقبل المسرح المصرى على عصره الذهبي ، ممثلا فى فرق « نجيب الريحانى » و «على الكسار» و « زكى عكاشة » ، التى كانت تعتمد على مؤلفين من أمثال « أمين صدقى » ، وعلى ملحنين من أمثال « سيد درويش » . وراج إذ ذاك نوع من المسرحيات الفكاهية — « الكوميديات » . الشعبية المصحوبة بأغان ورقصات وموسيقى . بيد أن الأحداث السياسية التى أدت إلى نفى سعد زغلول ورفاقه ، وإلى ثورة سنة ١٩١٩ ، كانت ذات تأثيرات عظيمة على المسرح الشعبي . إذ أنه انتهز الفرصة ليدخل على مسرحياته إيحاءات وطنية متوارية ، وعلى أغانيه نغمة قومية تناسب الموقف وتستمد من وحيه . وسرعان ما أصبحت هذه الأغانى تردد فى الشوارع ... وهكذا ساهم المسرح

الشعبي — فى تلك الفترة — فى القضية السياسية لمصر .

وفى هـذا الجو المشحون بالانفعالات الوطنية ، وبالصراع السياسى ، وبغنى المسرح القومى ، كان « توفيق الحكيم » يجتاز أهم سنى العمر ، وهي السنون التى تمتد من الثامنة عشرة إلى الخامسة والعشرين ، ففيها تجلى حبه العميق للمسرح ... ذلك الحب الذى كان كامنا — دون ما ريب — فى أعماقه ، والذى كان ينمو ويستوى كالنبتة القومية ، والذى كان ينمو نموا قوميا واقعيا ، فألهمه أولى رواياته : « عودة الروح » ، التى قدر لها أن تنشر فى سنة ١٩٣٣ . على أنه — فوق هذا — راح يغذى الفرق التمثيلية التى قامت فى تلك الفترة ، بمسرحيات كان يبتكر أفكارها ويكتب حوارها ، دون أن يضع اسمه ولقبه عليها . ومن ثم اكتسب تجربة ككاتب مسرحى على اتصال دائم بالممثلين الذين كانوا أكثر منه خبرة بضرورات الإخراج وتكوين المناظر ، بحكم ما كانوا يلمسونه من نجاح أو فشل فى اتصالاتهم اليومية بالجمهور . فاكتسب « الحكيم » من خبرتهم ما أفاده فى استكمال استعداده للتأليف المسرحى .

وكانت أولى مسرحياته تسمى « الضيف الثقيل » ، فى سنة ١٩١٨ . وكان من الواضح أن انجلترا هى الضيف الثقيل الذى لم يدعه أحد ، ولكنه أقبل دون استئذان ، ثم أبى أن يبرح الدار .

وقد منع الرقيب المسرحية ، فلم يقدر لها أن تمثل . على أن ثلاث مسرحيات أخرى ـ كتبها لفرقة « زكى عكاشة » ـ لقيت قبولا ، ولكنها لم تشتهر . وهى : « الخطيب » ـ التى مثلت فى سنة ١٩٢٤ ـ و « المرأة الحديثة » ـ وقدمثلت فى سنة ١٩٢٦ ـ وأوبريت «على بابا»، وقد أخرجت فى سنة ١٩٢٦ كذلك .

ومع ذلك، فإن أباه لم ير فى كل هذا الاتجاه الذى لا يقاوم نحو الوسط المسرحى ، سوى مظهر للفساد ، برغم أنه كان قاضيا منصفا . ذلك لانه لم يحدس مدى عمق ذلك الحب وتأصله ، ولا على أى أساس روحى خالد كان يقوم فقد غفل ـ ككل الآباء ـ عن مواهب ابنه . ولكى ينتزعه من هذه النزوات، أوفده إلى باريس لكى يستكمل دراساته القانونية ويحصل على «الدكتوراه» ولكنه لم يفطن قط إلى أنه إنما أوفده إلى عكس ما كان يبغى تماما . فما إن إستقر الشاب فى باريس ، والتحق بكلية الحقوق، حتى اتجه ــ كما تتجه إبرة البوصلة نحو الشمال ــ إلى الأوساط الفنية والأدبية البوهيمية، وإلى المقاهى التى كان الممثلون يغشونها . وكثيراً ما كانت قدماه تقلانه إلى مسارح « البوليفار » و« مونبارناس » و«مونمارتر » بدلا من قاعات المحاضرات فى « السربون » .

وانقضت ثلاث سنوات ــ من ١٩٢٥ إلى ١٩٢٨ ــ قبل أن يفقد أبوه الأمل فى أن يراه حاملا للقب «دكتور فى القانون»... ثلاث سنوات

أنفق الشاب وقته خلالها فى قراءة الأدبين : المعاصر والقديم ، وفى شحذ قريحته ، وفى صقل مواهبه وذوقه .

* * *

ولكن لكل شىء نهاية ...

ففى ذات يوم ، عزف الأب المصدوم فى آماله عن أن يبعث إلى ابنه بالمعونة المالية التى كان يسىء استخدامها فيما لا نفع له — كما كان يرى — وأرسل إلى ابنه يستدعيه للعودة إلى مصر . على أن الأمل لم يفارقه فى أن يرى ابنه يتخذ المهنة التى ارتقى هو درجاتها موفقا . ومن ثم فقد قضى « توفيق الحكيم » المدة بين سنتى ١٩٢٨ و ١٩٢٩ عضوا فى المحكمة المختلطة بالاسكندرية . وكان هذا المنصب ملائما له كل الملاءمة ، فهو فى العاصمة الثانية للبلاد ، وهو منصب مرموق ، لامع ، يكسب صاحبه مكانة اجتماعية . ومن ثم لم يجد « توفيق الحكيم » فيه أية غضاضة أو مضيعة لأحلامه . حتى إذا كانت سنة ١٩٢٩ إذا به يعين نائبا لدى المحاكم الوطنية .

وقدر للشاب فى الأعوام الأربعة التالية ، أن يرى مصر كما لم يرها من قبل ... لا الواجهة الجميلة لمصر ، التى تتمثل فى أهل المدن ، وفى مظاهر المدنية الحديثة فى القاهرة والاسكندرية ، وإنما ... الواجهة التى تتمثل فى المجتمع الأكبر ... مجتمع أبناء المدن الصغيرة ، وأدنى أوساط الطبقة

الوسطى ، فى البنادر والمراكز الريفية التى تنقل بينها بحكم منصبه ... وحولها الريف الواسع الشاسع بأهله الذين لا حصر لهم من الفلاحين الكادحين ، وكان هذا بالنسبة لتوفيق الحكيم بمثابة رفع حجاب عن عينيه ، ليرى فرط شقاء هؤلاء القوم ، وعواطفهم العنيفة الكظيمة — من ناحية — ولطفهم ومرحهم وروحهم الشاعرية التى كانت بمثابة منحة من السماء ، أو نعمة جعلت عيشهم الزرى محتملا بالنسبة لهم .

وراح يقيس السياج الخفى الذى كان يفصل الفلاحين من أهل مصر الذين يعيشون فى عهد متأخر عن مواطنيهم من الموظفين من أهل المدن ، الذين كانوا يطبقون عليهم قوانين مستمدة من قوانين نابليون ، التى لم يكونوا يفقهون منها شيئاً . ومع أنهم كانوا مطواعين سلسى القياد ، فإن أحداً لم يعن بمساعدتهم فى محنتهم وشقائهم .

وفى خلال هذه الفترة من حياته ، راح « توفيق الحكيم » يجمع مشاهداته عن حياة الفلاحين ، وعن عاداتهم ، وعن كلامهم ، وعن معتقداتهم ، وعن ظلم أو إهمال الموظفين الحكوميين لشؤونهم ، وعن طغيان ملاك الأراضى الأغنياء ... وهذه المشاهدات هى التى استخدمها بعد ذلك فى « يوميات نائب فى الأرياف » — فى سنة ١٩٣٧ — وفى كثير من القصص التى تضمنتها المجموعة المسماة : « ذكريات فى الفن والقضاء » ، التى نشرت فى سنة ١٩٥٣ ثم فى مسرحيـــة :

« الصفقة » ، التى مثلت فى سنة ١٩٥٧ .

وبعد أربع سنوات من العمل الذى كان يعافه لو لا أن وجد فيه نواحي فكهة ، وشاعرية كذلك ، كان توفيق الحكيم قد جمع كل ما ينبغي أن يعرف عن بلاده ، وعن شعبها . وأثقلت فؤاده صور التعاسة والشقاء التى كانت تحيط به ، وإن لم يكن أثرها عقيما فى نفسه . فما لبث أن تعطش إلى العودة إلى الأوساط المتمدينة ليطلعها على هذه الصور . وشعر بأنه لا سبيل إلى إثارة انتباه الرأى العام بالمؤلفات والمقالات ، إلا إذا استقر به المقام فى عاصمة البلاد . ومن ثم طلب تحويله إلى وزارة المعارف العموميـة (وزارة التربية والتعليم) . وفى تلك السنوات كانت جهوده الأدبية فى نضوج وتقدم — برغم الجو الذى كان يعيش فيه — فما لبث أن نشر فى سنة ١٩٣٣ أولى مسرحياته الفلسفية التى أثارت ضجة ومعارضة كبيرة ، وهى : « أهل الكهف » .

وإذ علم النائب العام أن أحد معاونيه هو سر الضجة التى ثارت حول أحد الأعمال الأدبية ، حتى استدعاه ونصحه ـ فى نهاية المقابلة ـ بأنه كان من الأفضل لو أنه برز بمؤلف فى « القانون » . فانتهز توفيق الحكيم هذه الفرصة ليجيب قائلا بأنه من الأنسب لحياته الأدبية وما قد تثيره من ملابسات لا ينبغى أن تؤثر على منصبه القضائى ، أن يحول إلى وزارة المعارف العمومية .

وهكذا لم يقدر للنزاع الطويل بين ميوله المتأصلة ككاتب ، وبين دراساته ، وبين منصبه القضائى الذى حاول أبوه أن يحمله على المضى فيه ... لم يقدر لهذا النضال أن ينتهى إلا وقد بلغ « توفيق الحكيم » السادسة والثلاثين . فعين مديراً لإدارة التحقيق بوزارة المعارف العمومية فى سنة ١٩٣٤ م ، وهو منصب قضائى هو الآخر ، ولكنه أكثر تحررا من سابقه ، وأدعى لاستقرار صاحبه فى القاهرة . وما لبث الكاتب أن نقل فى سنة ١٩٣٩ م إلى وزارة الشئون الإجتماعية — التى أنشئت على أثر الضجة التى أثارها كتابه « يوميات نائب فى الأرياف » ، لاسيما التعليقات المهتاجة التى نشرتها الصحف عن هذا الكتاب الذى عرض بصراحة صادقة — لأول مرة — الأحوال الاجتماعية للفلاحين .

وفى وزارة الشؤون الاجتماعية ، عين « توفيق الحكيم » مديراً لمصلحة الارشاد الاجتماعى ، التى كانت تسمى — فى بداية عهد الوزارة — بمصلحة الارشاد القومى . وكثيراً ما تعرض توفيق الحكيم خلال عمله لغضب رؤسائه من جراء مؤلفاته ومقالاته التى كانت تهاجم جميع الجهات ذات السلطان على السواء . وكم من مرة أنذر بالإيقاف والتحويل إلى مجلس تأديب . ولكن خوف المسئولين من ثورة الرأى العام ، ولما كان للكاتب كثير من الأنصار فى الصحافة ، انتهى إلى

خصم مرتب نصف شهر ، وهو أقصى ما كان الوزير يملك أن يقضى به ، وفقا للوائح .

على أن توفيق الحكيم لم يعد ـ فى سنة ١٩٤٣ ـ يطيق القيود التى كانت الوظيفة تفرضها على حريته ، ولا المضايقات التى كان معرضا لها كموظف ، فقدم استقالته من العمل الحكومى ليصبح حراً يستطيع أن يعبر عما يجيش بنفسه . ومع ذلك فإنه قبل ـ فى سنه ١٩٥١ ـ منصب المدير العام لدار الكتب . وهو منصب كان يبيح له كل الحرية فى أن يكتب ما يشاء ، فى جو ملائم . حتى إذا أنشىء المجلس الأعلى للفنون والآداب ـ فى سنة ١٩٥٦ ـ عين توفيق الحكيم عضوا دائما فيه ... وهو منصب ظل يشغله إلى أن عين فى منصب المندوب الدائم للجمهورية العربية المتحدة « اليونيسكو » بباريس ، بعد أن حظى بأرفع وسام فى الدولة .

* * *

ولا يبدو أن للمسائل الشخصية ـ من غراميات، أو عواطف أو رياضة ، أو أية هواية ـ مكانا كبيراً فى حياة « توفيق الحكيم » فقد انصرف بكل ذاته إلى الأدب والمسرح والصحافة فى أوقات الفراغ التى كانت أعماله الحكومية تتركها له . ولعل رياضته الوحيدة تمثلت فى حبه للجلوس فى المقاهى ـ فى فترة العصر من كل يوم ـ

بصحبة الأصدقاء الذين يلتفون حوله ... ولعل هوايته هى العصا و« البيريه » اللتين لاتفارقانه ... والبخل الذى يشاع عنه!

ولم يقبل «توفيق الحكيم» أن يشغل بالسياسة الحزبية . ولا بكتابة المقالات السياسية بالمعنى الحزبى المعروف . بل إنه جعل يسجل استهجانه للأحزاب السياسية جميعاً ، والنظام الديموقراطى الزائف الذى ساد مصر منذ انتهاء الثورة فى سنة ١٩٢٢ ، وذلك بمقالات أدبية ، فى أسلوب مفعم بالسخرية فقد كان ذلك النظام الديموقراطى - كما صوره فى « شجرة الحكم » - يتيح لمحترفى السياسة أن يجنوا كثيراً من الثمار الشهية . وقد أصدر هذا الكتاب فى سنة ١٩٤٥ ، وضمنه مقالات حمل فيها على هذه المساوىء . كما أنه عالج مشكلة الحكم والسلطان فى مصر — فى سنة ١٩٣٩ — فى مسرحية ، من وحى الشاعر الإغريقى الفكه « أريستوفان » ، سماها « براكسا : أو مشكلة الحكم » . وفى بعض مؤلفاته الأخرى التى تعالج نفس الاتجاهات ، مثل « يوميات نائب فى الأرياف » ، وعدد من قصصه القصيرة ، و«مسرح المجتمع» - الذى أصدره فى سنة ١٩٥٠ ، والذى ضم ٢١ تمثيلية - و«ذكريات الفن والقضاء» ... بل ومسرحيته « الصفقة » . فإن هذه كلها تسعى إلى كشف أسباب العلة فى الظروف الاجتماعية والإقتصادية التى صورها «الحكيم» بأسلوب واقعى تخالطه حرارة العاطفة ، ولطف

الفكاهة ، والشعر . فقد رأى أن الفكاهة والشعر كانا دائما صنوين لا يفترقان عن الشقاء والبؤس فى الريف المصرى .

ولقد ظل « توفيق الحكيم » معروفا لأمد طويل بأنه « عدو المرأة » لما نشره من مقالات حافلة بالسخرية والفكاهة عن الحركة النسوية المصرية ، وعن اشتغال المرأة بالأعمال ... وكانت « براكسا ! » بالذات ، مثالا واضحا لذلك . على أنه لم يلبث فى سنة ١٩٤٦ م أن تزوج ، وكان زواجه موفقاً سعيداً ، أتاح لعدو المرأة أن يصبح أبا لولد وابنة .

* * *

وتزخر مؤلفات « توفيق الحكيم » بالتناقض الأسلوبى . فهى تلفت النظر لأول وهلة بما فيها من واقعية التفصيلات وعمق الرمزية الفلسفية ... بروحها الفكهة وبرقة شاعريتها ... بنزعة حديثة مقترنة ـ فى كثير من الأحيان ـ بنزعة « كلاسيكية » ...

ذلك لأن « الحكيم » فنان فى أعماقه ، ولعله من أكثر الكتاب الكبار فنا ، لا فى مصر وحدها ، ولا فى الأدب العربى فحسب ، بل فى الأدب العالمى بأسره . فقد أخذ عن الاغريق القدامى تقدير العمل المتقن الأداء ، وحب المسرح الذى يصور مصير الإنسان خلال قصة رمزية ، تعالج غالبا بدقة تتسم بكثير من الواقعية والتحليلات النفسية

والتاريخية والسياسية والاجتماعية فى آن واحد . وقد عرف كيف يكتسب لنفسه شيئا من فكاهة « أريستوفان » وذكائه اللاذع ، ومن الشاعرية الدرامية التى امتاز بها « يوريبيدس » و « سوفوكل » وكثيرا ما وفق إلى ذلك التوازن الرفيع بين عناصر عديدة متباينة ، بعضها يتصل بالحياة أو بالخيال ، وبعضها بالحس أو العاطفة . ولكنها تتسق جميعا حول الشخصيات الرمزية ، وتدع للفكر الغلبة فى النهاية ، بعد موت الأبطال أو فشلهم ، وبعد غياب الممثلين عن المنصة .

ولا يبدى « توفيق الحكيم » هذه البراعة فى المسرحيات التى تدور حول موضوعات أسطورية قديمة — مثل « بيجماليون » و « براكسا » و « الملك أوديب » — فحسب ، بل إنه لم يكد يصل إلى سر صنعة الاغريق ، حتى عكف على محاولة تطبيقه على موضوعات جديدة ، ليخلق شخصيات جديدة . كذلك انصهرت فى أعماقه آداب أخرى بنفس الدرجة ... آداب الشرق فى عهد ازدهارها — أيام « ألف ليلة وليلة » وأشعار « ابن الرومى » و « أبى النواس » و « المتنبى » ... وآداب الغرب ممثلة فى انتاج « شكسبير » و « راسين » و « ميترلنك » و « ابسن » و « جيرودو » و « بيرانديللو » و « كوكتو » . وقد تعاونت هذه العناصر متكافئة مع شخصيته الفنية لانتـــاج مسرحيات رصينة متزنة .

وإلى جانب ذلك، أوتى « الحكيم » روحا حديثة ، وموهبة مجددة ، بالرغم من إغراءات الفن ، وفتنة الموضوعات الكلاسيكية والشخصيات الرمزية الخالدة . وقد تجلى هذا إلى درجة كبيرة ، بما أضافه — إلى كل ما سبق — من الواقعية المستمدة من الدراسات النفسية ، مما يوحى بإلمام واسع بالثقافة المعاصرة ، وبالتحليل المنطقى بوجه خاص . فبهذا توسل إلى تفادى المغالاة فى الحركة المادية ، التى كانت كفيلة بأن تكسب مسرحياته شيئا من المبالغة .

* * *

على أن الفن لا يتعارض مع الحياة عند « توفيق الحكيم » ، بل إنه — على العكس — قد أتاح له أن يوقع النغم المناسب ، الملىء بالأصداء والرنين ، أو بما يختار الفنان أن يشحنه به من معان . ففى « يوميات نائب فى الأرياف » — يرد الوصف الواقعى لحال الفلاحين فى سياق عقدة روائية شبه بوليسية ، لا يكشف المرء غموضها قط ... كما فى ذلك الشعر الغامض الذى ساقه على لسان « شريد به خبل » — هو « الشيخ عصفور » — وهو يتغنى بمحبوبته هذه الخيوط المتشابكة ، يحذق الكاتب جدلها بمهارة الفنان ، لينتج صورة تطبع على صفحة النفس أثرا أكثر شمولا لوقائع الحياة فى الريف المصرى ... تلك الوقائع التى كان يراها ، والتى

يقوم فيها — إلى جانب ما كان يستهجنه ويعلنه من شقاء الفلاحين — ذلك الجانب الشاعرى الغامض ، وتلك الجرائم التى كان يدرك أكثر من سواه أن لا سبيل لامرىء إلى أن ينفذ إلى سرها .

* * *

وفى الوقت ذاته ، نرى أن « الحكيم » يجيد استخدام وسائل الفن المختلفة لخدمة الموضوع . ففى « عودة الروح » وفى « ذكريات فى الفن والقضاء » ، وفى تمثيلياته الفكهة ، نجد أن الفن يتمثل دائما فى بنيان الانتاج الأدبى ، وفى الأسلوب ، مستخفيا بحيث يدع الصورة تبدو بمظهر واقعى محض . وهذا عين ما حدث فى « الصفقة » . فهنا عمد الكاتب إلى تجربة استخدام لغة عامية تماما ، ولكنها تخضع لقواعد اللغة العربية الفصحى . وهذا مثال للفن المستتر الذى يسمح بعرض الواقع بكل ماله من نكهة شعبية ، أرضية .

وبوسع المرء أن يقول إن الفن كان دائما العنصر الجوهرى فى حياة « الحكيم » بأسرها . فلا يعرف أحد فى حياة هذا الكاتب عاطفة جامحة ، أو عملا سياسيا خارج نطاق الفن . فإن الرجل المتمثل فى شخصيته اعتاد أن ينظر إلى الأحداث السياسية ، وإلى الأشخاص الأعزاء لديه ، وإلى المواقف الخاصة والمواقف القومية ، خلال فنه . فنجد أن الفن قد خدم هذا الفنان فى التعبير عن حبه وعن عواطفه ، وللتسامى

بأحزانه وصدماته النفسية ، وليحقق — فى دنيا المسرح — أهواءه وأمانيه ، فيبنى واقعا يخضع للقواعد والقوانين التى يفرضها الفنان. فكان الفن ، والفن المسرحى بوجه خاص ، ملاذا «لتوفيق الحكيم» من قسوة الحياة ؛ ففيه الأمل الذى يمنى نفسه بتلك الجنة المصطنعة، التى بهرته على مسارح الفرق التمثيلية المتجولة،وهو بعد صبى صغير. فالفن له — كما كان يشتهيه « أرسطوطاليس » — مطهر لنزوات نفسه ، ومحقق لها فى دنيا لا تخضع للمصادفات ،وإنما تخضع فيها إرادة الغير لإرادته الشخصية ، أو لإرادة الفنان الكامن فى نفسه على الأقل.

على أننا يجب أن لا نستنتج من هذا أن « توفيق الحكيم » داعية من دعاة « الفن من أجل الفن » ، يعيش حبيسا فى أطواء فنه كمن يعيش فى برج عاجى . فهو يستطلع خلال عدسة الفن وحدها كل جواهر الدنيا التى كان يراها فى الواقع بكل أدوائها الاجتماعية ، وديموقراطياتها الزائفة. إن« توفيق الحكيم» يعيش الأحداث خلال فنه، فساهم فى الجهاد الوطنى والسياسى والاجتماعى ، متكلما بألسنة شخصيات تصيح من وراء قناع الفن المجسم كما كان يحدث أيام الإغريق ، وهى طريقة تضخم صوت الإنسان - كما هو معروف - كى يصل إلى أسماع الحشد الذى لا حصر له .

وحتى كتابه « من البرج العاجى » ، إن هو إلا صيحة المؤلف

بخيبة أمله فى سلطان رجل الفكر أمام رجال السياسة ، وبالعزلة التى يصادفها الكاتب فى أداء رسالته وهو يصف الحياة ويكشف عما فيها من قوى مسيطرة ، وهى مهمة أشبه بمهمة « الكورس » فى « التراجيديات » القديمة . هذه الخواطر ذات الطابع الفردى ، تحمل فى الواقع دليلا على موقف الكاتب فى مجتمع لا يأخذ رسالته مأخذ الجد ... مجتمع يبلغ عدم فهم الفن فيه درجة تسىء أبلغ إساءة إلى سلامة ضميره .

* * *

وبعد ، فما هى الفكرة التى تساند وتوضح حقائق الحياة التى يعرضها « الحكيم » فى مسرحياته الكبرى المستمدة من الأساطير والقصص الدينى ؟ ... إن « أهل الكهف » و « شهر زاد » و « سليمان الحكيم » و « بجماليون » و « أوديب ملكا » تكشف لنا عن أصول هذه الفلسفة .

لقد حاول « الحكيم » - كمعارض لمذهب « الارادة » بطبعه - أن ينقض فلسفة أوربية معينة ، لا سيما مذهب « نيتشة » بالذات . فالمرء فى نظر نيتشة - وكذلك فى نظر أندريه جيد وغيرهما - حر مطلق الحرية ومتفرد تمام التفرد فى الكون . وقد أراد الحكيم أن يبين فى تمثيلياته أن الإنسان ليس صاحب السلطان الأوحد ، ولا

هو حر مطلق الحرية . » وإنما تنبع عظمته من نضاله الباسل فى سبيل الانتصار فى حرب مستحيلة ضد القوى غير المرئية المسيطرة على مصيره » . فنرى الكاتب يعيد ذكرى الحكمة الاغريقية القديمة التى تتجلى بأقوى تعبير فى التمثيليات التراجيدية الاغريقية ، ولكنه يصوغ هذا الفكر العميق فى قالب حديث ... وهذه القوى الخفية التى توجه مصيره ، والتى يناضلها هى قوى لم تعد تتمثل فى آلهة العصور الغابرة ، ولا « القدر » ، بمفهومه القديم ، وإنما هى - لدى توفيق الحكيم - قوى طبيعية ، تنبع من وجود الإنسان نفسه ، فهى قوى توجد فيه هو الآخر كذلك . فى داخله وليست فى خارجه .

ففكرة الزمن - مثلا - لم تعد تتمثل فى الإله « كرونوس » أبى الآلهة عند الإغريق - وإنما هى قانون طبيعى من قوانين الإنسان ... حقيقة واقعة تؤلف جزءا من نسيجه ذاته ، وتمكنه من أن يعيش ، وهى تأسره فى الوقت ذاته . . فالكهف - فى «أهل الكهف » - هو سجن الزمن ، وهو سجن غير مادى ، ولكنه فى الوقت ذاته جزء من وجودنا ، بحيث أن الاتصال بين أهل العصر الذى توجد فيه ، وبين من هم ليسوا معاصرين لنا يصبح مستحيلا . أى أن الإنسان ليس حرا فى التحرك داخل الزمن ، أو الحياة فى أفكار غابرة حتى لو أراد ذلك . إنها دعوة إلى مقاومة الرجوع إلى

الوراء ، لأن كل عصر له حياته وأفكاره ، وقد ظهر فيها « إفلاس البعث » إلى نفس الحياة السابقة .

والقوة الأخرى التى تمنع الإنسان من أن يكون حرا . هى إنسانيته ذاتها . كونه مخلوقا بين الحيوانية والروحية . وهذا هو الطابع الذى يتجلى بقوة فى « شهر زاد » . فقد أراد « شهريار » أن يتخلص من كل ما كان يجعله إنسانا ضعيفا كغيره من البشر . وبعد أن أطلق العنان لشهواته فى كل اتجاه ، وبعد أن اغترف من كل الملذات والمباهج ، أراد أن يتجرد لا من الجسد وحده ، بل كذلك من الأحاسيس والعواطف ... من الحب أو الغيرة ... أراد أن يصبح معرفة خالصة ، أراد أن يجعل « المعرفة » فوق « الإنسانية » . أراد على كل حال أن يتجاوز نطاق الجاذبية الإنسانية فى أى اتجاه . على أن شهريار ـ فى رأى « توفيق الحكيم » ـ رغب فى أن يهجر الأرض بحثا عن سماء عليا مستحيلة ، فكان مقدرا عليه أن يبقى معلقا بين السماء والأرض ، نهبا للقلق . وما شهريار سوى مثال لذلك الإنسان الأعلى ، الذى يرقى فوق مصاف البشر ... الإنسان الذى كان « نيتشه » يبشر به ... وهو — فى رأى توفيق الحكيم ـ لم يصل فى سعيه إلى شىء . إنه أيضا قد أفلس .

ومثال آخر ضد نظريات « نيتشه » و « أندريه جيد » . ذلك

هو « أوديب ملكا » كما صوره « توفيق الحكيم » . فقد استعرض الكاتب المصرى دور « تيريسياس » ـ الكاهن الأكبر ـ على ضوء جديد ،مبتكر . فإن هذا الكاهن الأكبر الذى لم يكن يؤمن قط بالآلهة التى يمارس طقوس عبادتها، لمن أروع الشخصيات «الحكيمية» التى تصور نظريات «نيتشه» لتسخر منها فى النهاية . فقد كان «تيريسياس» — فى الواقع — على ثقة لا حد لها بنفسه ، حتى لقد رغب فى أن يقوم بدور الآلهة ، وأن يصنع للغير قدرهم ومصائرهم . وكان يعتمد — فى تحويل المستقبل — على إرادته وحده . وقد أراد أن يغير نظام الوراثة فى البيت الملكى لمجرد إرضاء غروره بالعبث بمصائر البشر . ومن أجل هذه الغاية أقنع « لايوس » بأن ابنه مصدر خطر على حياته ، لأنه لن يلبث أن يقتله بمجرد أن يبلغ سن الرشد . ومن ثم أشار على « لايوس » بالإيعاز بقتل ابنه . ثم كان هو نفسه — « تيريسياس » — الذى ابتكر فيما بعد كل الشائعات عن خرافة الوحش الرهيب ، مستغلا فى ذلك الخوف الذى نشأ عن وجود حيوان كاسر هاجم بعض المارة . ثم كان هو نفسه الذى أعلن أن الذى يخلص البلاد من الوحش الرهيب ، سيتزوج الملكة ويتولى الحكم . وقد رغب فى أن يضع بذلك نهاية النظام لتوارث الملك ، بأن يرفع إلى العرش أول قادم ... وكانت هذه مؤامرة لا تستغرب

من « الإنسان » ، وقد رد عليها « القدر » بسخريته المعهودة ، فأنقذ « أوديب » وأرسله هو نفسه إلى البقعة التى يقوم فيها بالدور الذى دبره « تيريسياس » ! .

هكذا صور « الحكيم » إرادة الإنسان الأعلى - كما كان يرجوها « نيتشه » - صورها وهى تتحرك فى نطاق أوسع من نطاقها ... فى نطاق إرادة أخرى غير منظورة ... ولا يهم بعد ذلك أن يسمى الإنسان هذه الإرادة ربا ، أو قدرا ، أو مصادفة ! ... إن عظمة الإنسان ليست فى أن يرى نفسه الكائن الأعلى الحر الأوحد ، ولا فى أن يرى نفسه صنوا للآلهة ، وإنما فى أن يعترف بوجود هذه القوى غير المنظورة ، التى تعترض طريقة ، والتى لابد له من أن يناضلها دون هوادة .

* * *

ومع ذلك ، فإن هذا النضال لا يهدف إلى قهر هذه القوى ، وإنما هذا النضال ضرورى من أجل الحياة ذاتها ... ضرورى لكى يستطيع المرء أن يعيش ، إذ أن الحياة لا توهب جامدة ، وإنما هى تصنع من صراع دائب بين القوى المتعارضة فى أعماق نفوسنا وإن « بجماليون » لمثال يبين الكفاح الدائر أبدا بين الواقع والمثالية . فالانسان لا يقنع إذا ماحظى بالواقع ... ولا هو يقنع إذا ظفر بالمثل

الأعلى ، ذلك لأن الإنسان يشترك فى نظامين يتصارعان باستمرار فى أعماقه ... ولا ينبغى لأحدهما أن يتغلب .

وأخيرا ، يبين « توفيق الحكيم » فى « سليمان الحكيم » أن الانسان يقع كذلك ضحية لقوته الذاتية التى تستطيع أن تفقده الحكمة.

إن القوى الداخلية والقوى الخارجية سواء بالنسبة للانسان، فكل منهما جزء من الطبيعة ، والحرب بينهما — دون ما أمل فى سلام حاسم - هى قاعدة الحالة الانسانية وقانونها . لأن أى انتصار حاسم ونهائى لعنصر منهما فيه ضياع للانسان .

* * *

ولقد اتهم « الحكيم » بأنه متشائم ، فى فلسفته عن الانسان ومصيره ، ولكن ... هل رسالة الكاتب هى أن يصطنع دنيا كاذبة وإنسانا زائفا ليصور الانسان حرا كأنه إله ... حرية مصطنعة ترضى غروره وتعميه عن الحقيقة ؟ .

لقد رأينا إلى أى مدى كان الفن جزءا من حياة « توفيق الحكيم ذاتها ، أو - بالأحرى - كيف كانت حياته جزءا من الفن ، فمن المستحيل عليه أن يحرف ما يؤمن بأنه حقيقى ، دون أن يشوه الصورة التى يرسمها لنفسه وللدنيا ... إن ممارسة أى لون من الواقعية الحقيقية ، فى دنيا الفكر ، وفى النظرة إلى العالم ،

ليست تشاؤما ولا تفاؤلا ، لا سيما عند « الحكيم » بالذات فإن رسالة الكاتب — عنده — هى فى تصوير الإنسان بحجمه الحقيقى بالنسبة للكون ، وأن يكشف ويبين الأخطار الداخلية والخارجية التى تهدده ، وأن يحدد بدقة مجال ووسائل الصراع اللازمة فى سبيل الحياة وفى سبيل التقدم نحو الحرية ، ونحو الأمانى السامية .

كذلك يقف « توفيق الحكيم » على مسافة بعيدة من الطرف الأقصى الآخر « الوجودية الحديثة » التى ترى الحياة عقيمة ، ووجود الانسان لا معنى له . فحياة الانسان عند توفيق الحكيم لها معنى : هو سعى الانسان الدائم إلى التوازن أو التعادل - شأنه شأن الكواكب - بين قواه هو فيما بينها ؛ ثم بالنسبة إلى قوى الكون الأخرى الظاهرة والخفية التى تحيط به من كل جانب . وهو يناضل حتى لا تجذبه قوى العدم كما جذبت كواكب ضخمة . ووسيلة نضاله هى اكتشافاته الدائمة لمنابع قوى جديدة فى أعماقه يناهض بها ويوازن ويعادل قوى الكون التى تهدده . هذه الاكتشافات الدائمة لنفسه ولقواه هى فى ذاتها غاية للوجود الإنسانى . أنبل غاية لحياة الانسان هى أكتشافه الدائم لقواه . لأن عملية الاكتشاف عنده تولد حركة خلق متجددة فيها كل معنى الحياة المثمرة . لهذا كان لابد من أن يكون الانسان صادقا مع نفسه فى اكتشافه لها . وتلك رسالة الأدب الحقيق فى نظر الحكيم .

على أن توفيق الحكيم متفائل صراحة فى قصصه وتمثيلياته الوطنية والاجتماعية ، التى يكشف فيها - هى الأخرى - الأخطار التى تهدد الفرد الاجتماعى، لقد ردت الروح وبعثت فى مصر بفضل الجهاد والثورة الوطنية ... وهذا موضوع عاد يعالجه ويصوره بصورة أخرى فى « إيزيس » . وإذا كانت « يوميات نائب فى الأرياف » قد عمدت إلى كشف بؤس الفلاح ، دون الايحاء بعد بأى أمل ، لأن الكفاح العملى ضد الشقاء والفقر لم يكن قد بدأ بعد - نشر الكتاب ذاته كان من أسباب البدء - فإن « الصفقة» على النقيض ، إذ أنها تبين الفلاحين وهم يصارعون حالتهم الاجتماعية ، وتبشر بالانتصار . وهنا نجد القوى المصطرعة داخل نفس الانسان تتمثل فى الأنانية والغش ، والنفاق — فى جانب — والتضامن والتعاون، فى جانب آخر . أما القوة غير المنظورة فتتجلى فى غريزة سيطرة المال . ويبين المؤلف هنا أن من الممكن خوض هذا الصراع، والفوز فيه .

ومن ثم ، فمن رأى « الحكيم » فى مضمار النضال القومى ، أو الاجتماعى،أو السياسى أن حرية الإنسان تحمل على تحسين مصيره .

وكما أنه كان من الخطأ القول بأن الحكيم » متشائم - فى المثل الأول - فمن الخطأ أيضا القول بأنه متفائل ، فى هذا المثل الأخير . ذلك أن « توفيق الحكيم » إنما يسعى إلى إبراز ما يعتقد فى الواقع .

ولكن واقعيته لا تقتصر على رسم كل دقائق الأحوال المادية لأن هذا فى نظره بتر لحقيقة الحياة . وإنما واقعيته هى أيضا واقعية الفكر والمتضادات النفسية والخلقية ، التى تنطوى عليها طبيعة الانسان ، وطبيعة الوسط الفكرى الذى يعيش فيه …

* * *

على أننا نجد وراء كل هذا ، أن مجال الفن هو الذى ينقذ الانسان، فى خضم المتناقضات وألوان الصراع التى لا تنتهى ، والتى يفرضها عليه واقع الدنيا وطبيعتها الحقيقية . وهذا ما لم يدخل صراحة فى الفلسفة التى عبر عنها توفيق الحكيم . بل إن من الممكن القول بأنه ذهب فى «بجماليون» إلى العكس ، إذ بين أن الفن وحده لا يكفى . وراح هو فى محاولة طويلة يسعى إلى إعادة تشكيل الدنيا والانسان ، دون أن يموه على نفسه أو يخادعها .


Bibliotheca Alexandrina
04208803